أربع مجموعات قصصية قصيرة

الطبعة الأولى 2023

تصميم: شربل إلياس



الناشر: مكتبة كلّ شيئ - حيفا 2023
ناشرون

info@kul-shee.com
www.kul-shee.com

ISBN 987-965-7824-2-5

بكر أبوبكر

أبونرجس يدخل الانتخابات!

أربع مجموعات قصصية قصيرة

المجموعة الأولى:

عنق مدلاة

عنقٌ مدلاة!

دخلت القاعة التي انتظم فيها جلوسا عدد متناثر من الحضور المتكون من الصحفيين والاعلاميين العاملين بوسائل الاعلام المختلفة، وذلك للقاء الحاسم والهام-كما أعلن عنه- مع دولة رئيس الوزراء، وجلّ الحضور في ترقب لما سيقوله، لا سيما وأن البلاد في حراك غاضب.

وما بين تبادل بعض الكلمات الخافتة، وبعض الابتسامات القليلة، كان الجمع بأغلبه ينتظر لقاء رئيس الوزراء الشهير بطوله الفارع.

لقد كان طويل القامة، وظنّ أنه بقامته هذه قد يصل لقامة زعيم المملكة الأوحد الإمام فتحي ناصر الدنيا والدين وحامي حمى الحق والمؤمنين، ما لم يوافقه فيه المتظاهرون على ذلك.

كانت المظاهرات قد علت منها الأصوات في شوارع المملكة ضد كل الطبقة السياسية رافضة بقاء الطبقة الحاكمة التي تستغل إرث مؤسسي المملكة، على قاعدة الإدعاء منهم بالمشي على آثارالسابقين، فيعمل الجُدد من رجال الدولة على استغلال البلاد والعباد وإرث المؤسسين ليظلوا هم أي القادة الجدد محمولين قسرا على أعناق الناس.

كان الحضور يترقب وصول دولة رئيس الوزراء الشهير بقامته الفارعة وعبوسه الدائم وتجهّمه بسبب وبلا سبب،

فهو كان لربما أطول رئيس وزراء ليس في بلادنا فقط بل في منطقتنا، وبالتأكيد هو الأطول في تاريخ بلادنا، وكان هذا الطول فيه من مساحات التندر من قبل المتظاهرين ضد الطبقة السياسية بالدولة الكثير.

المهم، نحن جالسون في القاعة بانتظاره، وعادة المسؤلين في بلادنا التأخر لإظهار المكانة، والعظمة الموهومة! وبعد مرور أكثر من ساعة إلا ربع، ونحن ننتظر فُتح الباب الذي أطلّ منه دولته ، وللمناسبة فلقد كانت فتحة الباب أطول من المعتاد ليستطيع دولته الدخول وعنقه مشرئب فلا يضطر لينحني كما يضطر عباد الله المؤمنين جميعا أن يحنوا الرقاب حين الدخول الى كنيسة المهد في مدينة بيت لحم هناك في فلسطين البعيدة عنا.

نعم لقد زادوا من ارتفاع الباب ليدخل، وعنقه الجبارة مرتفعة، كما حال الزرافة وبالمناسبة فلقد كانت أحدى أهم تسميات المحتجين في البلد له هي تسميته بالوزير الزرافة، منذ كان وزيرا.

دخل دولة رئيس الوزراء الى القاعة مرفوقا بجيش من المرافقين الذين كانوا ملتفين حوله كالغمامة.

كان دولة رئيس الوزراء سيلقي علينا بيانا هامًا كما فهمنا نحن الصحفيين المجتمعين لسماع تصريحه أوكلمته.

من الجدير ذكره أن دولة الزرافة، عفوا دولة رئيس الوزراء هو من مدمني الاعلام التقليدي من صحافة وتلفزة وإذاعة،

وهو أيضا من مدمني وسائل التواصل الاجتماعي كما الحال مع الرئيس الأمريكي «دونالد ترامب»، بمعنى أن صورته في كل مكان، وهو يظنها كما تهيىء له الخاصة أو البطانة الملتفة حوله أن صورته مطبوعة كأيقونة في قلب كل مواطن!
دخل دولة رئيس الوزراء الى القاعة ورفع يده اليمنى ملوحًا ....فلم يقف أحد! فهو قد ظن بدخوله أننا نحن معشر الصحفيين نشبه القطيع الذي يديره، وظن أننا سنقف للاستمتاع بنور جبينه الوضاء! وما فطن أننا جئنا للاستماع لكلمته أو إعلانه وكفى وننطلق الى أعمالنا، فلم يعجب هذا الفعل معاليه، فنظر الى الحضور نظرة غضب عارم، وهو مازال على الباب وقطّب جبينه أكثر مما هو عابس، ودلف الى مقعده على المسرح واجما بلا كلام!
لقد تحرج مقدم البرنامج الذي يتضمن فقرته الوحيدة أي كلمة رئيس الوزراء، أحجم عن الحديث والتقديم، لأن دولته جلس واجمًا ينظر الى الأرض!
فذكرني هذا الموقف بفعلة الحجاج بن يوسف الثقفي في العراق-مع الفارق الكبير- حين قدم من المدينة الى الكوفة، معمّما وملثّما، وأغلق أبواب الجامع الذي سيخطب بالجماهير فيه، وأعلم الحراس بقطع رقبة كل من يخرج أثناء خطبته ثم أرخى عنقه مطرقا للأرض لفترة طالت حتى كاد أحد الحضور أن يحصوه بحصوة.
المهم أن دولة رئيس الوزراء كان واجمًا وعنقه الطويلة

مدلاة الى الأسفل، وكأنه يبحث عن كلمات يقولها في هذا اليوم التاريخي الذي سيعلن فيه بيانا هاما كما فهمنا.

معاليه أو دولته كان صديقي، وكنت وإياه نعمل في وزارة واحدة، ولله وشهادة للتاريخ فلقد كان يتفوق علينا جميها بقدرته العجيبة على نسج العلاقات مع كل المختلفين، مهما تلقّى منهم الركلات على قفاه، أوالصفعات على خديه، ولا تتساءلوا كيف كان يتلقى الصفعات على خديه وهو بهذا الطول؟ إذ أنه كان يطأطيء الرأس طائعا مختارا ليتلقى الصفعات البهيجة!

نعم، كان يتميز بقدرته العجيبة على الضحك والإضحاك، والتبسم حين تتجهم الوجوه، وبقدرته على إلقاء النكات حتى على نفسه وطوله الفارع أمام المسؤولين.

حتى عندما يكون المسؤولون في قمة الأزمة، والتوتر والعصبية، يكون هو قادرا على أن ينتزع من أفواههم ضحكات ما كان يستطيعها غيره، وكثيرا ما لقي السباب والشتائم والطرد منهم لأسلوبه هذا، ولكن ردة فعله المتقبلة لدرجة استمراء الذِّلة والتلذذ بالمهانة كانت تغتصب من شاتميه من كبار المسؤلين ضحكات وقهقهات طويلة بطوله الفارع ، فها هو يتلقي القدح والشتم والركل والصفع بكل نفس خَذِلة، ظنوها طيبة وكانت غير ما ظنوا.

الطريقة الانتهازية التي كان يتعامل بها فرج الجرجاني مع المسئولين هي ما أهّله ليرتقي السلم درجات درجات، وليس درجة درجة، أي أنه ارتقاه قفزا أو طائرا، فلا هو بصاحب

درجة علمية، ولا هو بالمثقف، ولا هو بمفكرأو مبدع، وما هو بكاتب حكيم، أو أديب أريب، أوصاحب قيم عالية.
وما أهمية كل ذلك في مملكة الإمام فتحي ناصر الدنيا والدين وحامي حمى الحق والمؤمنين!
فرج الجرجاني امتلك من صفات الانتهازية، والدونيّة ما أهّله ليصبح وزيرا ثم رئيس وزراء، لنكون نحن اليوم بمعيّة دولة رئيس الوزراء الأفخم!
في الفترة التي تجاورنا فيها معًا داخل الوزارة ، كان مكتبه بجوار مكتبي وكان يرسم في مخيلته أن يكون رئيس قسم ليس إلا، معتقدا أن هذا أسمى الأماني! وها هو يكسر السلّم ويصعد كالصاروخ.
هل هو نائم أم أنه يغمض عينيه ليرتاح قليلا؟ أم أنه مغمى عليه! لقد كانت تساؤلات الصحفيين بالقاعة مثارة نتيجة صمت دولة رئيس الوزراء الطويل، ونتيجة قلقهم وارتباطهم بمواعيد أخرى لا سيما وانهم متجهون بغالبهم لتغطية مسيرات الرفض في الشارع للطبقة السياسية الحاكمة فوق رقاب الناس والتي على رأسها الوزير الأول الزرافة فرج الجرجاني.
تقدم الي المنصة رجلٌ قصير القامة أنيق الهيئة علمت لاحقا أنه من مكتب دولة رئيس الوزراء وهمس بإذن دولته ما لم نتبيّنه، فرفع الرئيس رأسه ونهره، ماذا حصل ولماذا؟ لم نعلم ولربما كانوا يستحثونه على الكلام وهو يريد أن يعاقب

الحضور، أو أنه كان يبحث عن الكلمات المناسبة، أو أنه فعل ذلك ليشد انتباه الحضور، لا سيما وأنهم لم يقفوا للترحيب بطول قامة سيادته أوللاستمتاع بالنظر الى بهاء وجهه.
بعد دقائق مرت علينا كالدهر، بين همهمات امتعاض واستنكار ونظرات انزعاج، ومحاولات للمغادرة كانت تُقابل بنظرات الحراس الواقفين على الباب الصارمة وبشدهم أيديهم على الأسلحة، فنتراجع.
بعد هذه الدقائق الدهرية وقف رئيس الوزراء الأفخم، وذهب الى المنصة ليتحدث...لم تكن المسافة من الكرسي الذي جلس عليه مطرقا برقبته الطويلة الى الأرض ومنصة الخطابة الا بضعة خطوات... كانت كافية لأن يتزحلق، ويقع من طوله ممددًا على المسرح! فأثار الضحك الكثير.
أُخرِج رئيس الوزراء من باب جانبي على المسرح، وتم إلغاء المؤتمر الصحفي، وأُخليت القاعة فورًا، ومن ثم أعلنت حالة الطوارىء بالمملكة، ولينتشر في أنحاء البلاد سيلٌ من النكات التي لم تجعل من دولته الا أضحوكة في كل بيت، وليس أيقونة في كل قلب .
كان القرار الأول الذي اتخذه بعد حادثة المنصة هو تحطيم المنصة، واستبدالها بمنصة الكترونية، وحبس مجموعة مفتخرة من المعارضين، واعتقال عدد من زملائنا الصحفيين، الذين وجهت لهم تهمة وضع الموانع والعراقيل في طريق تفكير رئيس الوزراء الأفخم.

اجتماعي مع الوزير فيحاء عبدالدايم.

كنت أحد المدعوين من المهندسين في مختلف وزارات البلد لاجتماع هام! يعقده وزير الأعمال العامة والشوارع السحابيّة، معالي الوزير فيحاء عبدالدايم.

ولما كانت مثل هذه الدعوة الموجّهة لمهندس مغمور مثلي تعدّ منحة من الله، فلقد قمت بالاستعداد بشراء حُلة جديدة جميلة ومُبهرة، فذهبت الى سوق الأثواب المستعملة لغرض العثور على بدلة تليق بمقام وزير الأعمال العامة والشوارع السحابية.

لحُسن الحظ فإن في بلدنا العديد من المحلات التي تعرض البدل والحلل والأكسية الكثيرة المستعملة ومن العلامات التجارية العالمية، وإن كان لك من صديق في هذه المحلات فقد يدلّك على قطعة هامة لمرحوم راقي!! خلّف بعد رحيله بدلة جميلة أوقميصا لائقا.

توجهت مع دعوات أمي الى محل الملابس العتيقة الذي أعرفه، وبعد فصال طويل تحصّلت على قطعة واحدة غالية هي المعطف (جاكيت)، ولم استطع الحصول على السروال (البنطال)، فلربما كان من نصيب غيري!

ولكن ما سرّني هو أن المعطف كان من علامة تجارية معروفة وبصحة جيدة، وثمنه مقبول لي.

المرحلة الثانية كانت بمحاولتي العثور على قميص وربطة

عنق تليق بمقام وزير الأعمال العامة والشوارع السحابية معالي فيحاء عبدالدايم ، ولما لم أجد بالمحل ما أريد فلقد سلمت امري، ففي ظل أن القميص سيتغطى بالربطة والجاكيت فلن ينتبه أحد من الحضور للقميص ...سينبهرون بالمعطف، وسأتفاخر به، وهو ما سأركز عليه! وينسون الباقي.

آه لقد نسيت السروال (البنطال)!!! وبعد تفكير وتقليب الأمور على أوجهها المتعددة قررت أن ألبس بنطال كتّان أي بنطال (جينز) وهذا مقابل ذاك، فأظهر مهندسًا متمرسا ب(الجينز)، وشخصية مرموقة بالمعطف الذي يبدو غاليًا، هكذا رأيته، وإن اشتريته بعشرين دينار فقط.

قبل الموعد المقرر بساعة كنت قد وصلت الى مقر الوزارة، ولم أدري ما أفعل! فأنا لا أعرف أحدا هناك لأعرّج عليه مثلا الى أن يحين موعد لقاء الوزير المرتقب.

تمشيت بالشارع المقابل للوزارة طولًا وعرضا فلم ينقضي من الوقت الا نصف ساعة كانت كافية ليسجل لي تطبيق صحتي على الجوال ١٩٢٤ خطوة و١،٣ كم و ٣ طوابق وهذا جيد للسكري الذي لا أعاني منه حتى الآن، كما هو جيد للسمنة مرض العصر شرط المداومة عليها.

بقيت نصف ساعة... فخطر لي أن أطلب من رجل الأمن بالوزارة أن يدخلني خاصة أن الجو بارد، وتوكلت على الله وسألته ويا ليتني ما فعلت!

رفض رجل الأمن رفضا قاطعًا، وطلب مني أن ابتعد عن

باب الوزارة، وكأنني حشرة أو قنبلة موقوتة!
فقلت له أن عندي اجتماع مع الوزير بعد نصف ساعة.
فأجاب: إذن تعال بعد نصف ساعة.
عدت أتمشى، ولكن بعيدا عن بوابة الوزارة التي تم تحذيري من الاقتراب منها.
عند الساعة المحددة إلا دقائق خمسة انتظمت في طابور المهندسين الداخلين إلى الوزارة المطلوبين لاجتماع هام جدا مع معالي الوزير فيحاء عبدالدايم .
كنت في قمة الفرح والسعادة فأنا سأقابل معالي الوزير فيحاء عبدالدايم؟
لم يهمني الدورالطويل ولا الاجراءات، فحضور اجتماع لمثلي يعمل في مصلحة المياه مع معالي وزير الأعمال والشوارع السحابية حدثٌ تاريخي بحق، فأين أنا وأين هو؟
وصلني الدور
الاسم؟
نزار بشكش خالد
أعطني الهوية
ليست لدي
طيب جواز السفر!
لا أملكه الآن
رجل الأمن متضايقًا: طيب رخصة السواقة على الأقل
ليس لدي سيارة

آوووف ما هذا....قف الى جنب دعني أدخل الأخرين
وقفت الى جنب، وطابور المهندسين والمهندسات المتأنقين والمتأنقات يمر من أمامي حتى أغلقت بوابة الوزارة، وأنا ما زلت أنتظر على الباب.

ماذا تفعل هنا؟

أنت قلت لي انتظر!

لماذا؟

لأنني لا أمتلك هوية للدخول لحضور الاجتماع مع معالي الوزير فيحاء عبدالدايم

طيب اذهب واحضرها!

لكن بيتي بعيد!

وما شأني أنا، التعليمات ألا يدخل أحد الا بأن يضع هويته هنا، وأسلمه بطاقة الدخول ليعلقها في عنقه ويدخل.

نعم!

وعندما يعود نتبادل، فهو يعطينا بطاقة الدخول المعلقة في عنقه، ونحن نعطيه هويته

طيب، سأذهب للبيت واحضرها.

....

ذهبت.

بدأ معالي فيحاء عبد الدايم وزير الأعمال والشوارع السحابية بالحديث عن أهمية الشوارع في تاريخ البشرية موضحا أن الحضارات الكبري مثل حضارتنا انتقلت من بلد الى بلد من

خلال الطرقات و الشوارع التي شقتها الحمير وأحيانا البغال.
صرخ أحد العاملين في مكتب الوزير الذي لا أعرف اسمه:
عاشت الحمير!
المهندسون يرددون:عاشت عاشت عاشت!
وأكمل الوزير فيحاء عبد الدايم محاضرته في مدرج الوزارة المصمم بالحقيقة ليس كغرفة اجتماعات، وإنما كمدرج محاضرات في جامعة ينطق من على منصته الوزير بما هو ليس في بال المهندسين أو العاملين!
أكمل محاضرته: لقد جمعتكم اليوم بطلب من دولة رئيس الوزراء الذي شرفني بدعوة مهندسي الدولة بكل الوزارات لنعمل معًا يدا واحدة على بناء الجسر العظيم الذي سيربط شرق البلاد بغربها وأنتم تعلمون أن النهر العظيم الذي يشق بلادنا نصفين يجعل من التواصل بين الأهالي صعبا إلا عبر المراكب التي لطالما غرقت، ونحن في القرن الواحد والعشرين.... فهذا لايجوز.
صرخ أحد العاملين في مكتب الوزير وأظن اسمه محمد: لا يجوز لا يجوز لا يجوز.
المهندسون يرددون: لا يجوز لا يجوز لا يجوز.
أكمل الوزير حديثه ذاكرا مآثر رئيس الوزراء وعلوّ همّته، وقدراته الخارقة ونعمائه التي يسبغها على الجميع موضحا الثقة الدائمة التي يحصل عليها من مجلس الأمة مجلس الشعب.

يصرخ أحد العاملين في مكتب رئيس الوزراء وأظن اسمه محمد: عاش رئيس الوزراء المخلّد

عاش عاش عاش.

كان المفترض أن يكون الجمع في حالة اجتماع! ولكن الظاهر أنها محاضرة!

هذا ما قاله لي صديقي المهندس الذي حضر الاجتماع المفترض، الاجتماع المنعقد فيما كنت انتقل عبر الشوارع والمواصلات الصعبة وصولا لبيتي لإحضار بطاقة التعريف (الهوية).

أكمل صديقي قائلا:

قلت لك أن الاجتماع في حقيقته محاضرة بل ومملة.

اضطر الحضور منكّس الرأس للاستماع لمحاضرة عن أهمية الشوارع ودور الحمير، وعن مآثر رئيس الوزراء، ولما لم يكن يُسمح بالسؤال أو التعليق أو المداخلة على مظنة أنه اجتماع فلقد تحدث وكيل الوزارة مؤكدا على التزام كل المهندسين من مختلف الوزارات لبناء الجسر العظيم المقام فوق النهر العظيم .

علق الوكيل، وحسبي الله ونعم الوكيل، قائلا: وهل الحمير أحسن منا؟ مجيبا على سؤاله: لا والله.

يصرخ أحد العاملين في مكتب رئيس الوزراء وأظن اسمه خليل أو محمد: عاشت الحمير عاشت الحمير عاش الوزير عاش الوزير

عاشت الحمير وعاش الوزير.
انتهى الاجتماع.
التقط الوزير مع الجمع من المهندسين والمهندسات المتأنقين والمتأنقات صورا تذكارية تاريخية، مع الوزير المبتسم ابتسامات عريضة، والمتأنق فيحاء عبدالدايم.... وانصرفوا.
خرج معالي الوزير من الوزارة في موكبه المهيب، سيارة تسبق سيارته وسيارة تتبعها، مع دعوات العاملين وحارس الباب الذي أغلقه بالمفتاح.
هكذا إذن، قلت لصديقي وهو يحدثني عن فحوى الاجتماع!
الذي فاتني.
قال نعم، ولكن أين كنت أنت؟
شرحت له ما حصل معي... حتى عدت متاخرا ألهث وصولا لبوابة الوزارة.
ومع ذلك فهو لم يلاحظ معطفي الجديد؟
وأكملت له:
دققتُ على نافذة الغرفة الزجاجية المطلة على العامة عند بوابة الوزارة، وبعد فترة وصلها أحدهم
نعم!
عندي اجتماع مع معالي الوزير فيحاء عبدالدايم.
معالي الوزير خرج.
يعني الاجتماع انتهى؟
والله لا أدري، فلا يوجد أحد بالوزارة.

لكنني أحضرت بطاقة الهوية كما طلبتم!
وماذا أفعل بها؟
لتعطيني بدلا منها بطاقة الدخول! وأعلقها في رقبتي!
الدخول الى أين يا أخي، الوزارة سكّرت!
طيب أعطني بطاقة الدخول، لأعلقها في رقبتي، وأعطيك الهوية!
ضحك صديقي وأنا أحدّثه.
وقال لي: في المرة القادمة أطلب معرّفين محلّفين اثنين ليُقسِما أمام رجل الأمن، وتحصل على بطاقة الدخول، وتعلقها في رقبتك، وتدخل!
لم أضحك.
نظر الى معطفي وأمسك يتحسس قماشته...سُررت جدا، فلربما لم يذهب شرائي له هدراً
قال: بكم اشتريته؟
قلت متفاخراً: أعجبك! إنه وحياتك ب٢٠٠ دينار .
يا لطيف! معطف تافه! ب ٢٠٠ دينار! وحياتك ما بسوى عشرين!
ولقد أصاب، وكأنه دلق على وجهي دلوا ثانيًا من الماء البارد.

إبن تيمية و ورق العنب

في مقهى الأمل على قارعة الطريق الواصل بين الشارع الكبير وشارع المقبرة جلس الصديقان والأنسباء في ذات الوقت، وأمام كل منهما فنجان من الشاي

- يا ابو عمر والله تغلّبت مع المرة (المرأة) يقصد زوجته
- لماذا يا أبو أحمد ؟ ما شاء الله عليها
- اكلّمها شمال، تكلّمني يمين!
- كيف يعني؟

يعتدل أبو أحمد في جلسته ويضع رجلا تحت إليتِهِ ويحتسي رشفة من كوب الشاي الذي يعدّل المزاج كما يردد دوما، ثم يُلحقه بنفس «سيجارة» مترقبًا حالة الحُرقة والشوق والتي يصاب بها أبو عمر كلما حدّثه أبوأحمد وأبطأ عليه الرواية، مهما تكررت.

وهو إذ يتعمد الإبطاء هذا فإن هذا يُشعره باللذة وهو ينظر لصديقه بنصف عين مترقبًا ثورته ... وهو ما يحصل، وحصل

أبو عمر – خلّصنا يا أبو أحمد ... إحكي

أبو أحمد – يعني لا تريدني أن أشرب الشاي؟

أبو عمر بعصبية– اشرب الزفت! وتكلم ... لا حول ولا قوة الا بالله

أبو أحمد باسماً– إذا زعلت بلاش أحكي.

ينتصب أبو عمر ويصرخ غاضبًا في وجه رفيقه: يا رجل أترجّاك أن تتكلم، ولا تصيبني بأزمة قلبية من أسلوبك البشع هذا.

أبو أحمد منفرج الأسارير: خلاص، خلاص ... سأتكلم

اذ بعد أن يكتفي أبو أحمد من رفع درجة الحماسة لدى صديقه، وبعد أن يعدل مزاجه برشفات ثلاثة يبدأ بسرد مشكلته الأثيرة والمكرورة الناتجة عن فقدان الحوار واختلاف العقليات بينه وبين زوجته.

فهو أسير محرّر من أولئك الذين قضوا أيام سجنهم في قراءة الكتب والدراسات والروايات المتنوعة فتشكلت لديه ثقافة جديدة، لربما فاقت ما كان من ثقافة أشباه المتعلمين من خريجي الجامعات، فكيف هي الحال مع زوجنه ابنة عمه التي انتظرته عشرين عاما... ولم تتغير؟

قضت أم أحمد جُلّ زمانها مخطوبة لأبي أحمد (المعتقل) متنقلة بين بيت أهلها وبيت أهله وبين تحيّات الاذاعة وزيارات السجن، والأمل بالإفراج الذي ما أن تم وأقيمت الافراح والليالي الملاح حتى اكتشف العروسان الفجوة التي تفصل بينهما.

أبو أحمد: كنت أحادث أم أحمد، الله يستر عليها، عن الفرق بين فكر ابن تيمة وابن حزم بتبسيط شديد! وهي كانت تضع عدة لف ورق العنب أمامها، وتهز برأسها حيناً ثم تبتسم الى أن وصلت بالحديث للجماعات التكفيرية اليوم، وكيف تنتقي

من كلام القدماء ما يعينهم على تطرفهم حتى أن منهم من طلب هجران أكل المحاشي وورق العنب بدعوى أن الرسول لم يأكل في عهده! حسب ما وصلهم مثل هذه الأطعمة، فرفعت ريما رأسها.

أبو عمر: مين ريما.

ابو أحمد مستغربا: ريما امراتي أم أحمد، أنت تمزح...!

أبو عمر: آه ، نعم ، اعتقدت إمراة أخرى... أكمل.

يسترسل أبوأحمد: رفعت ريما رأسها وقالت مصعوقة: ماذا؟ ورق العنب! وهل هناك أطعم وازكى من ورق العنب (الدوالي)؟ حتى انظر كيف ألفّها ولا الماكينة التي أحضرتها أم عبود لبيتها؟ هل تعتقد أنني لا أعرف كيف أطبخ الدوالي! .. وأنا مَن تستشيرني كل نساء الحارة لأقيّم لهن الطبخات؟

فرد عليها أبو أحمد: ومن الذي تحث عن قدرتك العجيبة في لف أو طبخ ورق العنب؟

ريما أم أحمد: أنتَ، وقلت أن الرسول لم يأكل ورق العنب.... بل أكلها، وقال زاكية؟

أبو أحمد: حرام عليكِ يا ام أحمد ، ليس هذا ما قلته، ثم كيف علمتِ أن الرسول أكلها؟

ريما أم أحمد: يعني أنا طرشاء لا اسمع، وحياة الله انك حكيت عن الرسول وورق العنب.

أبو أحمد: كنت أضرب مثلا افتراضيا فقط.

ريما: استغفر الله العظيم يا أبو أحمد .... الرسول!

أبو أحمد: لا تنفعلي يا أم أحمد كان حديثي عن التطرف مثل ذاك المنسوب للخليفة العبيدي (الفاطمي) الحاكم بأمر الله الذي ينسب اليه تحريم الباذنجان، فقست على هذا المثال فقط.
ريما: وكمان الباذنجان! ... يعني ما نطبخ؟
أبو أحمد: وهل أنا قلت ذلك؟ لم أتحدث بهذا الأمر!
ريما: كل حكيَك ورق عنب وباذنجان ... يعني قصدك انك ما بتحب أكلها! وإلا لماذا هذا الكلام وأنا ألف ورق العنب؟
أبو أحمد: لقد رأيتك يا أم أحمد تهزّين رأسك وتبتسمين فاعتقدت أنك مندمجة بحديثي عن فكر ابن تيمة والامام إبن حزم الظاهري؟
ريما: ومن هؤلاء؟ ... أنا كنت أهز راسي مبسوطة بورق العنب .. شوف زي الحرير.
كان أبوأحمد يتحدث وهو محروق القلب على لغة التواصل المقطوعة مع زوجته وبعد 20 عاما من خروجه من المعتقل والزواج.
كان يتمنى ان يجلس أمام انسان مثقف يشجّعه ويُحسن الاستماع له، ويقدّر علمه الذي اكتسبه على فترة 20 عاما طويلة بالسجن، واستمر بها خارجه، فإن لم يجد التقدير أو التشجيع وهو ما لم تألفه ريما ولم توصله له فإنه أمِل بعد ذلك أن تستمِع فقط وتُبدي الاهتمام، ولو الشكلي! ولكن لا فائدة.
في المقهى التفّ حول الطاولة كما العادة عدد من أصدقاء الرجلين من المعتقلين المحررين، وعدد من كوادر التنظيم،

ولأنهم يعرفون ريما ويعرفون أبو أحمد كانوا يخفّفون عنه أحيانا ممازحين وضاحكين بتحميله المسؤولية، وأحيانا بالطرافة.
المهم أن أبو عمر كان يستمِع بإصغاء الراغب بأن يدلي بدلوه، ويقضي بين المتخاصمين، فيما كان أبو احمد يريد فقط مَن يستمِع له، أوهكذا كان يخيّل لأبي عمر، وما عساه يتخيل؟
فنجان الشاي الثالث وضحكات يومية من الحضور ... تجهّم أبو أحمد، وتجاوز الأمر، ثم عاد وانشرح واسترسل، فالكلام متعته رغم حَنَقه من زوجته ومن بعض ردود أفعال الأصدقاء ، فهو يجد المتنفس الذي يستطيع من خلال رواية مغامراته اليومية مع زوجته ويجد الفرصة أيضا ليستعرض عضلاته البلاغية والفكرية، و رغم كل المنغصات يعتقد أنه هو الكسبان.
أبو عمر: طيب يا أبو أحمد، هل أكلت ورق العنب الذي طبخته أم أحمد؟
أبو أحمد: أنت تفعل بي نفس الشي! أتكلم باتجاه، وأنت تحرف الحوار بالاتجاه الآخر، ومع ذلك أقول لك: أيوه يا سيدي أكلته.
أبو عمر: وطلع مثل الحرير؟
يضحك مجموع الأصدقاء المتحلّقين حولهم، فيستغلها أبوأحمد فرصة ليشرح لهم عن طريق الحرير وأهميته قديما

وحديثا، ولماذا أسمي بهذا الاسم موضحاً أن صناعة الحرير ظلت مقصورة على الصين لمئات السنين باعتبارها سرا من أسرار الدولة.

كان أبو خالد قد سحب كرسيّا وتحلّق حول الطاولة مع أبو أحمد وأبوعمر، وبذلك فقد وضع نفسه في دائرة المسموح لهم بالتعليق، رغم أن أبوعمر لم يستطيع أن يأخذ حقه من الحديث لتزاحم الأسئلة الطريفة من الأصدقاء ما أطرب أبو أحمد.

قبل أن ينبس أبو خالد ببنت شفة، اقتنص أبوأحمد الفرصة وضرب على الطاولة.... حتى كادت كاسات الشاي تنسكب مما أدهش الجالسين والواقفين .. ماذا حصل ولماذا هذه العصبية؟

أبوعمر: مالك عصّبت يا أبوأحمد؟

أبوأحمد واقفًا ويضرب كفًا بكف: لا حول ولا قوة الا بالله... ينظر باتجاه أبوأحمد ويسأل عن الساعة فيكتشف أنه في هذا المكان من ساعتين تماما!

أبو عمر: هل نسيت شيئا؟

أبو أحمد: والله، نسيت ... الله يلعن الشيطان

أبو عمر: لعلّه خير ... تذكر

أبو أحمد: انا متذكر ما نسيته لساعتين ولكن هذا أدخلني في ورطة قد أطرد على أثرها من البيت

أبو عمر: يا ساتر ... ماذا نسيت؟

أبو أحمد: نسيت ريما؟

أبو عمر مبتسما ومشفقا: نسيت ريما أختي زوجتك ... يا ويلك و يا سواد ليلك أين نسيتها؟

أبو أحمد: في سوق الخضرة، ووعدتها ارجع بعد ربع ساعة! انت تعرفها عندما تتسوق... تشتري ما ثقل حمله وغلا ثمنه!

أبو عمر: وأنت نازل تحكي لنا محاضرات!

ضحِك كل الحضور من الأصدقاء، ليس لأن أبو أحمد نسي زوجته ولا لعنترته البادية وليس لمحاضراته الدائمة المكرورة يوميا، حيث صح المقال في المقام أو لم يصح.

ضحكوا لشيء آخر مختلف جدا، لم يخطر على بال ....

لقد توفت زوجة أبو احمد من سنوات تسع، وهو نفسيا لا يريد أن يعترف بذلك! ولطالما كرر حكاياته ومغامراته معها مدبّجا ذلك بمجموعة من الأفكار الثمينة حقا.... ولكن بداية مرض النسيان الانتقائي أوالخرف قد أتت على السنوات التي لحقت موت زوجته، إذ يتذكر كل شيء قبل ذلك، وعنده وفاة زوجته وما تلاه فالشاشة بيضاء أو تملأها الغيوم الماطرة أحيانا وغير الماطرة في أحيان أخرى.

أبو عمر والحضور يعلمون الحقيقة ولكنهم يتركونه ينفّس عن قهره المكبوت منها وعن فقدانها بذات الوقت، ويطمئنوه عند كل حال تذكّر لنسيانه، لا تقلق: ريما، هاهي وصلت البيت واتصل أحمد يبلغنا! ...

الحديث في قاعة خالية!

يعمد بعض الناس لتغيير الموضوع، أو الانزياح عن موضوع النقاش بقصد، وتعمّد فإن كان الحديث في الهندسة يحولونه الى السمكرة، وإن كان في أزمة الطاقة يتحول لمشكلة فرن الغاز في بيته.

وان كان الحوار علميا أو دينيا يسيّسونه... فهذا أسهل فالسياسة ملعب العالمين والجهلة معا، وعندما يكون الحديث في مناهج العقل أو طرق التفكير يحوّرون الحديث نحو التقرير أو النقد أوالسخرية ناهيك عن الشتم او إعطاء التوجيهات والأوامر للحضور.

تغيير موضوع النقاش في ندوة أو جلسة أو لقاء جاد دلالة على فراغ المتحدث أو تذاكيه أوعدم إلمامه بالموضوع، أواستسخافه للآخرين وتكبّره كما أسر لي زميلي فؤاد.

فبدلا من أن يسأل الشخص ويستفسر ليفهم،ما لم يفهمه أو ما يأنف عن فهمه،أو يفترض عدم أهمية فهمه فإنه يحوّل أو يزيح الموضوع باتجاه مختلف،باتجاهه هو. أي باتجاه ما يفقهه.

ان من مميزات المتحاورين الجادين -كما قال لي صديقي فؤاد وهو يرتشف فنجانا من القهوة الحلوة-هو: عدم التذاكي أو الادعاء أو التفتيش عن السقطات، وانما محاولة إفساح المجال أمام العقل ليستوعب المختلِف-أكان يوافقه أم يرفضه-

ليحاول فهمه من حيث هو فكرة، ومن حيث غايات الفكرة وتأثيراتها.
وافقته على ما قال، فكلامه عين الصواب، وأردفت: بل ومن واجب المتحاور أن يُظهر الغِبطة أو الشكر للمتحدّث، وإن اختلف معه،فكيف بمن لا يستغني عن النقد العابث الذي يخلط الرأي بالموضوع أو بالموقف بذات الشخص؟
استرسل فؤاد وهو يبتسم ملمحا لحادثة وقعت معنا، فقال: حين يعمد المتحدث لإزاحة الحديث الى مربع ليس ذو صلة بالنقاش! فهو الى ما سبق وقلناه إما يتهرب، أو يحاول إظهار عضلاته الكلامية في المجال الذي يتقنه، أو لمجرد الظهور أمام الآخرين، أو حتى أمام نفسه! فهو لا يستطيع ان يجلس صامتا والناس تلقي بدلائها.
من هنا كان حوارنا الثنائي اللطيف هذا في المقهي الشعبي في الطابق الثاني لاحقا للحدث المغيظ، بل والمقيت الذي وقع معنا.
كنّا في جلسة منذ أيام حضرها حشد من المثقفين والكتاب والصحفيين فاق الأربعين شخصا، وكانت فكرة أوعنوان الندوة المعدّة مسبقا هي: تطوير الأداء الشعبي في مجابهة الاحتلال الصهيوني.
تكلم المتحدث الرئيس في ١٥ دقيقة وبصلب الموضوع، ملتزما بالمضمون والمدة، فتحدث في الأهداف المحددة للتطوير في الأداء النضالي، زمانيا ومكانيا وبرامجيا، وعرّج

على مدى ملائمة الظرف طارحا احتمالات «سيناريوهات» وبدائل للمواجهة مرجحا إحداها.
صفق له الحاضرون، ودار النقاش من ثلث الحضور تقريبا، والباقي كان يستمع باهتمام الا من أحدهم.
رفع صاحبنا يده للمداخلة التي حُدّدت للجميع ب٥دقائق لكل متدخل، فتحدث ويا ليته ما فعل! لكن هيهات، لقد تحدث كمسجّل لا يمل التكرار لمقاطع أغنية قديمة طويلة محددة، بل وكان يتكلم بأسلوب يشي بعجرفة واضحة وتبرم وضيق، بل وقرف بادٍ!
حرَف صاحبنا موضوع النقاش المحدد الى الوضع السياسي العالمي فالاقليمي فالوطني، بطريقة العلك، دون أي صلة أورابط بموضوع الحديث، والأدهى والأمر أنه أدعى أن المتحدث لا يمتلك القدرة أوالمعلومات! بمعنى أنه هو وحده من يمتلكها! وبمعنى أن المتحدث الرئيس بالندوة لا يفهم، رغم أننا نحن الحضور الذين لم نفهم ما يقوله صاحبنا المتذاكي!
لا يفوتنا القول أن حديث أخينا المتذاكي هذا قد دام أكثر من 38 دقيقة بالتمام، نعم، دون توقف أو انقطاع! مما أثار الملل والضيق والحنق، والاعتراض ما لم يلتفت له.....حتى بدأ المجلس يخلو من الحضور، شيئا فشيئا دون أي بادرة وعي من صاحبنا!
حاول مدير الجلسة بلطف تنبيهه لأكثر من ٥ مرات على تجاوزه وقته ووقت الندوة ككل، وانزياحه عن الموضوع،

فلم يبالي صاحبنا المتعالي!
بل ومعتبرا أن ما يقوله هو كلام مهم، بل وأهم من كلام المتحدّث الرئيس، وجميع المتدخلين! ويجب على الجميع الاستماع له.
اشتد الأمر مع المتذاكي، وانفتحت قريحته.... فالكلام عنده يجر كلاما، حتى دق بيده على الطاولة!
فانسكب فنجان القهوة بقربه... ولم يأبه له، واستمر مؤكدا على دور روسيا في سوريا والعراق وأهمية الأسطول الروسي في البحر الأسود، وأن الخوف القادم على العالم من بوركينا فاسو والدول امثالها في أفريقيا!
لم يبقَ في القاعة، حين تناول دور «بوركينا فاسو« وهو يقترب كما ظننت من ختام حديثه، الا أربعة فقط!
كان منهم مدير الندوة الذي كان يقلّب عينيه بين السماء والطارق، والمتكلم المتذاكي ذاته، وأنا، وشخص آخر لا أعرفه، بينما كان المتحدث الرئيس قد لملم أوراقه من زمن طويل واستأذن لارتباط سابق وخرج.
كنت -لسوء حظي-واحدا من الأربعة الباقين المغلوب على أمرهم، ابتسم حينا، وأنظر للباب حينا آخر، أرجو من الله الفرج، فلقد تأخر صديقي فؤاد الذي خرج لقضاء حاجة لنا.
كان فؤاد قد خرج أثناء حديث صاحبنا الصاخب، لأنه يعرفه ويعرف أنه حين يتحدث لا يقول شيئا، ولا يتوقف لأنه يسير كشاحنة على منحدر ..... وكنت بانتظار فؤاد وأنا مملوء

بالضجر والملل، لنطير بعيدا عن هوس صاحبنا. الذي كان يوصّف الحصان بصفات الجمل.

ما أن أطل صديقي فؤاد من الباب الموارب، وجال ببصره ناظرا في القاعة، حتى غطى فمه بيده، فلقد كاد يطلق قهقهة عالية، فالمنظر مضحك ومبكي... وأشار لي أن أقدِم بسرعة ....

قمت أنا هاربا مسرعا الى الباب في غفلة من عين صاحبنا المتذاكي الذي كان ينظر بحدة لمدير الجلسة-ذاك الذي يكاد ينفجر- ويصيح مكملا ما يظنه تحليله السياسي الخطير، وكلامه الهام جدا في القاعة الخالية!

حينها رمقني مدير الندوة بنظرة صاعقة من تحت نظارته.... كغريق يسعى لطوق النجاة!

قصة الحمار الذكي وعرش بايزيد

كان يلعب مع أقرانه في باحة المدرسة، ولما خرجت الكرة طائرة من فوق أسوار المدرسة بكى!

كان يمسك بكتابه المحبّب بيده اليمنى، فطار الكتاب مع الكرة لأنه هو الذي ركلها برجله اليسرى الفاحشة.

طارت الكرة كما طار الكتاب بل، وطار معمّر البربري معهما، هكذا كان اسمه

بكى معمّرالبربري على الكرة الطائرة القافزة خارج المدرسة وعلى الكتاب

حملوه على النقالة، فلقد كسرت رجله في رحلة الطيران إذ وقع عليها فلم تحتمل ثقله، ولكنه بكى

هو حمار، مع تحفظ الكثيرين على اتهام الحمار بالغباء وهم صادقون، وكان أصدقاؤه يعلمون «بحموريته» وازعاجه غير المبرر.

بكى معمّر البربري لضياع لعبة الكرة، وظل طوال فترة مكوثه بالمستشفي يندب حظه الذي أتى به الى هنا-المستشفى- بعيدا عن الكرة!

لم يبكِ كتابه ولا رجله، ولا أيام الدراسة التي ضاعت، ولا انزعاج أهله...

ألم أقل لكم أنه حمار، مع الاعتذار

كان الحمار معمّر البربري مزعج جدا لكل أقرانه الى الدرجة

التي كانوا فيها يتجنبونه بكل أمر لكن أنفه الطويل يتم دسّه في كل أمر فلا يستطيعون منه فكاكًا، إلا بالحيلة

في أحد المرات وليتخلصوا من (حشريته) طلب منه زملاؤه بالمدرسة أن يذهب الى النجار ليصنع لهم كراسي عرش السلطان بايزيد الأول سلطان العثمانيين، على شرط أن يكون بايزيد الأول وليس الثاني وأن يكون بنفس تفصيله وبنفس نوع خشبه القديم، وبنفس الفراء الأوكراني الذي كان يغطيه!

كانت مهمة مستحيلة، فمن يعرف أصلا ما هو شكل العرش السلطاني المذكور!

لم يتصدى أحد للمهمة المستحيلة إلا هو، فذهب من طوله الى أبوعبدالباري النجار الشهير في المنطقة، وما أن نطق بمطلبه حتى حدّق فيه النجار طويلا، وبدا يتصل من هاتفه النقال:

السلام عليكم، أم معمّر

نعم، مَن؟

أنا النجار جاركم غير البعيد أبو عبدالباري البخاري

أهلا يا خالتي خير

أبنك معمّر عندي يطلب عرش السلطان بايزيد الأول بالتحديد؟

نعم ماذا قلت، لم أسمع جيدا!

والله يأ ام معمّر، كما قلت لك... يطلب عرش السلطان

......

ماذا أفعل؟

أعطيه إياه يا خالتي هذا ولد جاهل، لربما طلبه ليس عندك، دبره واعطيه إياه؟!

نعم يا خالتي ماذا قلتِ!!!

استحلفك بالله الا تكسر خاطر الولد!

أغلق أبو عبدالباري الهاتف، وصرخ في وجه الولد وطرده من المحل محملا بالشتائم له ولوالديه ولمن أرسله.

عاد معمّر البربري الى أقرانه بالنتيجة التي يعرفونها وكانت صِفرا، فما لاموه ولكنهم تركوه لعله يفقه شيئا، وتخلصوا من إزعاجه لفترة.

في باحة المدرسة من اليوم التالي كانت قصته مع كرسي السلطان محور كل الأحاديث حتى وصلت مدير المدرسة الذي لم يعرف ماذا يفعل أيبكي أم يضحك فطفق يضرب كفًا بكف.

اقترب معمّر من أحد زملائه ورجله مازالت لم تلتئم بعد فجذبه من قميصه بشدة

-لم فعلت ذلك

-أمازحك

-وهل ممازحتى تعني شق القميص

ضحك معمّر وانصرف

طلبوا منه في أحد الأيام أن يأتيهم بكيلو سمك نهري من بحر فلسطين في حيفا، فلم يرفض وذهب مصرّا على نوال الطلب

من قصاب (لحّام) المدينة فتم صفعه
ولكنه حمار، والى ذلك ثقيل الظل.
وعندما كان الطلبة يتحايلون عليه ليبعد أنفه، كان يدسّه لسبب
وبلا سبب
اذهب واركب الحمار ولا تعُد به الا محمّلا بشوالات الذرة!
رفض ركوب الحمار وأصر عليهم أن يأتوه بحصان!
ولما لم يكن بملكهم لا هذا ولا ذاك، بدأ يبكي ويريد حصانا
ليذهب به ويأتي بحمل بعير من الذرة
حمار!
قال أبو عبدالمحسن في مكالمته لأمه إن ابنك حمار وان كنت
أرى بالحمير ذكاء لا يستطيع ابنك أن يصله، فكان ردها
صحيح ابني ذكي، فأعطه العرش الله يستر عليك، ولا مشكلة
إن كان عرش بايزيد الثاني؟

بين السيد والتابع (أ) و (ب) و (ج) و (د) مع حفظ التراتبية

كان التابع لا ينفك تنفيذ أوامر السيد، بإخلاص.
ولكن للسيد من الأتباع الكثير.
لنسمي الاتباع المقصودين هنا (أ) و (ب) و(ج) و (د)
فالتابع (أ) كان يّظهر العداء الشكلي لسيّده.
والتابع (ب) هو تابع بالتعدي للتابع (أ)
أما التابع (ج) فهو تابع للتابع (ب)
وبالتالي هما بالتبعية والتعدي تابعان للتابع (أ).
أي انهم جميعا بدرجات متفاوتة وأدوار متفرقة وتراتبية حديدية يعملون عند السيد.
يؤمن التابع (ب) أنه يعمل من أجل الشعارات التي يرفعها (أ)
ويظن (ج) أنه أصبح بتبعيته ل (ب) وكأنه بمنزلة (ب) من (أ).
ويظن (ج) أو لربما يعلم أن أهداف وقيم (ب) و(أ) الاستراتيجية غير أهدافه، لكنه يتبع!
يموتون وتموت جميع الأحرف فداء للسيد.
العلاقات بين (ب) و (ج) تتروح بين التقارب والتباعد ويجمعهما المحور، ويفرقهما المحور والمبادئ ومتغيرات الحال.
السيد يتفرج على معادلة التركيب بين (أ) و (ب) و(ج)،

فكلّها تعمل بشكل أو بآخر في فلك أهدافه النهائية، فلا يتدخل لضرب كف هنا أو ركلة هناك الا حين يظن التابع أنه قد تحرّر جزئيا او حين يحاول أن يفكر أوحين ينبهر بمحور آخر، أو سيد آخر.

الأسياد هذه الأيام لا يتحاربون مباشرة! فلِمَ خُلِق العبيد؟

تحدثنا عن الأتباع بالتدريج (أ) و (ب) و(ج) وما بينهما من تراتبية مختلفة ومكانات مختلفة وأدوار جزئية مختلفة.

في يوم من الأيام عصى التابع (أ) سيّده.

ضربه السيد على وجهه بالسوط؟

انتظر التابع (ب) والتابع (ج) رد التابع (أ)!

بالروح بالدم نفديك يا (أ).

يسقط السيد!

السيد وتابعه الأول متفاهمان، فهل يدرك (ب) و (ج) ذلك؟

السيد وضع بيت الجيران -بطابقه الأول فقط- تحت إمرة التابع (أ) وهو من أتاح لتابعيه النزول ببعض الغرف أحيانًا.

التابع (أ) بالغرف حقّق المراد، والسيد استخدمه بالتنظيف وفي الطبخ ومسح الحمامات ما كان مطلوبا من (ب) غالبا ومن (ج) أحيانا بالتعدي.

الضرب بالسوط للأتباع ضرورة!

وبالنسبة للتابع (أ) أمام التَبَع (ب) و (ج) قد تبدو مهانة!

التابع الأكبر (أ) حلف أن يردّ ليحتفظ بماء الوجه أمام التابع (ب) والتابع (ج)، وأمام الأشباه.

ذهب التابع (أ)الى المطبخ حانقًا، ولم يضع الملح بالطعام لسيده.

أكل السيد الطعام بلا ملح!

كان الردُ موجعا!

انتهت القضية.

ومازال الأتباع يبهرون العالم بصرامتهم، وعنفوانهم.

تحدثنا عن التابع (أ) وتابعه (ب) وتابعه بالتسلسل (ج)

....

ولكن أين التابع (د)؟

التابع (د) واضحٌ ومكشوف، فهو يعلن تبعيته جهارا نهارا.

لذلك يَلقى الشتم من التابع (أ) وأتباعه، ويتصارعان أو يتصارعون.

السيد مرتاح، فالمشكلة بالمطبخ أو الحمام عند جيران الأتباع قابلة للحل.

ومازال أرباب السياسة والدبلوماسية يحلّلون؟

....

عن ماذا تتحدث؟ ألم نتفق على عدم الحديث بالسياسة؟

ومن قال أنني أتحدث بالسياسة؟

ما سبق وقلته عن دولة نيجيريا؟

ما تحدثت عنها أو غيرها!

عمّاذا كنت تتحدث إذن؟

ظننتُك ذكيًّا!

اعذر لي غبائي، واخبرني بالله عليك؟

كنت اتحدث عن خالتك صفيّة، وزوجها وأولادها،أفهمت؟

يعني لا يوجد سياسة؟

وما شأننا بها، أرجو أن تكون فهمت؟

فهمت.

أفهمت؟

نعم، فهمت.

حمدًا لله.

يا ليتني حلزونًا!

على شاطيء البحر كنتُ أسيرُ بخطٍ متعرج ثم أركضُ، ناشرًا ذراعيّ باتجاه الريح، وكأنني أستقبل النسمات بصدري... فاحتضنها بيدي الاثنتين.

كان المسارُ المتعرجُ الذي أسير به علي شكل الأحجية التي توصلك الي بيتك، تلك التي كانوا يضعونها في صفحات التسلية في الصحف اليومية... آه، نعم، تلك التي توصل بها بقلمك من إشارة السهم الي نهاية اللعبة.

لم تكن الريحُ شديدة، بل كانت تُلقي بدفعات من الهبّات المتتاليات اللواتي لم تتمكن أي منهن من إيقافي عن الترنّح والسير بشكل حلزوني.

متعةُ احتضان الريح بالنسبة لي أكثر من متعة التقاط ثمرة تين ناضجة في عزّ الصيف من على شجرة قد خلت من معظم ثمارها لأن أبناء القرية قد سبقوني لالتقاطها...لكني ظللتُ أمعنُ النظرَ حتى وجدت تلك الناضجة المدلّلة تنتظرني.

نعم كانت متعةُ احتضان الريح، والأرجل تغوص في رمل الشاطئ أكثر لذةً من مداعبة أنف امرأة جميلة تُطل من نافذة حُبلى بالمفاجآت في يوم ماطر، إمرأة كنتُ قد تعرفت عليها للتوّ... فلاحقني ظلّها حتى باب الغرفة.

كان احتضان الريح يولّد في نفسي الشعور المكتوم بالانبساط، والرغبة الأثيرة بالتحرر من القيود المرئية واللامرئية.

لم يكن لحضن امرأة تجلب اللذّة المؤقتة أية قيمة، مع افتقاد الحرية المعبّر عنها باختيار الأشواق، وعبق الأحضان، ونعيم الحوار المُفضي الى فضيلة الثرثرة، والاستماع دون خجل أو دجل أو وجل.

كنت أجلس على شاطيء البحر في كل يوم قُبيل المغيب، ففي المغيب يختفي البحر، يذوبُ البحرُ في قِدر الليل، البحر الذي يغسل أسنانه وينظف قذى عيونه الكثيرة التي يطل بها في اليوم التالي على العالم.

كنت أجلسُ بعد حالة اللاتوازن... ثم التوازن التي تعتريني حين أعدو علي الشاطىء مفتوحَ الذراعين محتضنًا الهواء الرطب، فألتذّ كثيرًا إلى الدرجة التي أتمنى فيها ألا تغيب الشمس، فيختفي البحرالذي يعيد تزيين شعره المرسل وثغره الكبير.

جلستُ هذا اليوم عند فم صخرة مفتوح الى آخره

ماذا تفعل؟

اهتززت...من المتكلِم؟

لم يكن على الشاطىء بقربي بمثل هذا الوقت من أحد، فمن المتكلم؟

سألتك، فأجب!

متعجبًا: ومن أنت؟

ومالك ولي، أجب!

التفتُّ على يميني وإلى يساري فلم أرى المتكلم! فهل هو

ضربٌ من الجنون لأسمع أصواتًا لا أتبيّن قائلها؟ أم أنني أتحدث مع شبح، أو ملاك؟... وكأنني أطلتُ التفكير وزال مفعول الريح السحري الذي كنت قد احتضنت منه الكثير.

قررت أن أجيب فقلت: إنني استريح علي الشاطيء.

لم يكن هذا مقصد سؤالي!

وما هو المقصد؟

ماذا تفعل بجلوسك كل يوم على الشاطئ قبل المغيب؟

أعتقد أنني استريح بعد حفلة الركض التي أمارسها على الشاطئ، كما تراني على ما اعتقد، فهل لديك مانع؟

ولِمَ أمانع! أنا مجرد مراقب ،، وَدَدت مشاركتك أحزانَك؟

ومن قال أنني حزين؟

أنت حزين،لأن الذين يحتضنون الريحَ أمثالك، ويتقافزون كالأطفال على الشاطئ، هم تُعساء.

لست تعيسا!

بل أنت كذلك، فكيف لسعيد أن يعيش لوحده، بلا صديق؟

تلفتّ ثانية ذات الشمال وذات اليمين، فلم أجد أحدًا، ولكنني استمتعت بالحوار الذي بدّد وحدتي، فقلت مناكفًا: بل لي أصدقاء، وليس صديق واحد.

وأين هم، لا أراهم؟

وأنا لا أراكَ!

لأنك لا تنظر إلا إلى الأعلى!

نظرتُ حيث الرمال، متنبهًا من كلمته، فلم أجد على الشاطئ

الا الرمال وضربات الموج الكسولة ...ومجموعة من الأحجارالتي تمارس الوشوشة برفق ....وقوقعة!

أهذه أنت؟

رأيتني أخيرا!

رأيتُك أخيرا.

إذن أين هم أصدقاؤك؟

أصدقائي، يا صديقي الجديد، حيث أضع قدمي وحيث تذهب روحي إنهم الرمال والهواء والماء والصخور وصوت الطيور ونغمات أمواج البحر.....

اعذرني هذا كلام فارغٌ! فلا صديق إلا من ذات الجنس.

وهل تشترط أن يكون لي صديق إمرأة مثلا؟

إمرأة أو رجل هذا شأنك، المهم الصداقة حيث الحديث أو الملازمة أو الرِفقة أوالأنس أوالوصل والمشاركة... والوصل لا يكون إلا من الكائن لجنسه.

ولكني أتواصل معك، ولست كذلك، وعليه أتواصل مع الريح والبحر!

إن رأيت أنتَ هذا تواصلًا فأنا أراهُ منقوصًا فلا صداقة إلا بين الأجناس الواحدة.

هذا رأيك، لكني لم أجد من جنسي من يستحق ذلك.

ولم ذلك؟

عندما كنت أرتفعُ معهم لا يصِلون، وعندما انخفضُ لا يفهمون، وعندما أسدّد الرميةَ لا يشكرون، وحالما أقصّر

ينتقدون، ولما وجدوا مني رداءً ممزقا لم يرتِقوه، وهم فوق ذلك حملٌ ثقيل، وفهمٌ هزيل وتباعدٌ عقليّ ليس له مثيل، وفقدان للحرية كبير! فمن أين آتي بالأصدقاء؟

رفقًا بهم....وبنفسك.

دعني أيها الحلزون، فأنا وهكذا هي حالي، أنا أستطيع احتضان الريح وتقبيل أرجل البحر، ولثم شفاه السماء الغنية، ومداعبة موجات البحر، والتغزل بعيون الطيور وأعناقها وهي فرِحة دون وعد أو وعيد.

وبحرية؟

نعم بحرية، فهي فوق كل ذلك حرية، فلا تدع من عواطفي مركبًا يخوض به الآخرون فيمخرون العُباب، ويلقون بي عند أول منعطف.

كان الحلزون يحدثني ويبتعد، فلم أفهم السبب حتى رأيت حلزونًا آخر يظهر فيتقاربان.... رويدا رويدًا، ثم يتجاوران وينطلقان، وغابت الشمس.

الطرشاحيون يغزون الإمارات

جاءوا من خلال السفن الالكترونية، وعبر الطيارات الخاصة، وعبر القطارات الجوية السريعة وعلى فترات متقاربة وبدعم كامل من الاحتلال الانجليزي الشهير بإشاعة الحقد والبغضاء في كل مستعمراته، بالقديم والحديث من التاريخ، وبما يخلفه من خلافات حدودية واختراقات طائفية وتناقضات بينية تستعصي على الحل..جاءوا لاحتلال الإمارات.

الاحتلال الانجليزي للإمارات في العام 2118 قد قام بخطوته الاستعمارية والالكترونية هذه على قاعدة تأهيلها للاستقلال! حسب تقدير **منظمة الأمم الملتحمة** الذي اعتبرالإمارات مؤهلة للاستقلال وتصنيفها «أ».

الشعب الطرشاحي -أو **الطرشاحيون** كما يحبون أن يتسموا- وبتحالفه مع الانجليز في الحرب الالكترونية الاوربية-الإسرائيلية المسماة ظلما العالمية تحصلوا على **وعد «ترمبور»** في أرض الإمارات العربية، بعد أن كانت الخيارات قد دارت بين ناغورني كرباخ، أو أندورا، اوكاليفورنيا، أو صيهد العوازم، أو القنفذة أو تمنرست أوفيجي أو رواندا من المناطق المختلفة عبر العالم.

الطرشاحيون من خلال منظمتهم العالمية قرروا أنهم شعب وقومية! وليسوا ديانة عالمية كغيرهم! من ديانات العالم التي تفرخ كل يوم ديانة جديدة أو طائفة الكترونية او مذهب

حيزي مكاني.
اختار الطرشاحيون بعد صراع طويل في منظمتهم أن **الامارات العربية المتحدة** هي أرض آبائهم واجدادهم خاصة الجد الاكبر المسمى **فلفل،** الذي مات على وعد ربه له بهذا البلد من 4000 عام!

الحقيقة البادية للثوار الاماراتيين، المدعومين من الثوار الفلسطينيين، ومن أحرار العالم أن انجلترا تآمرت مع «الطرشاحيين» للأسباب الاستعمارية المعروفة التي لا تخرج عن نهب الشعوب واستغلالها والهيمنة عليها وسرقتها كما هي عادة هذه العقلية الاستعمارية.

الطرشاحيون في حقيقة الأمر ما هم الا مجموعات متفرقة من الناس جاءت من كل أصقاع الأرض لها دين طرشاحي واحد لكنها تدعي في طبعتها النهائية أنها تمتلك أرض دولة وشعب الامارات العربية المتحدة من 4000 عام مضت وانقضت، وأكل الدهر عليها وشرب وزِوِر وتقيأ وبال وأخرج.

المهم أن الطرشاحيين او من يدعون الانتساب للديانة الطرشاحية -المخلوطة بالقومية الفلفلية والتي ما هي الا قبيلة قديمة اندثرت لا صلة لاصحاب الديانة الطرشاحية بها- قد بنوا مصانعهم ومزارعهم ومستعمراتهم في إمارة أبوظبي وفي دبي وفي كل الإمارات السبع على مدار الاحتلال الانجليزي منذ العام 2118 الى العام 2148 .

وفي هذا العام أي عام 2148م قررت الأمم الملتحمة

بدعم **الولايات المتحدة الإسرائيلية،** أن تقسّم ما كان دولة الامارات العربية المتحدة الى قسمين أي بين الإماراتيين وبين الطرشاحيين فأعطت الطرشاحيين ثلثي الإمارات، وأبقت للإماراتيين وهم السكان الاصليين الثلث الباقي فدارت الحرب حتى أستولى الطرشاحيون على معظم الجزء المتبقي للإماراتيين.

الامة العربية أو بالاحرى الجزر المتبقية منها لم تقبل هذا الاحتلال الطرشاحي المدعوم من بريطانيا ومن الولايات المتحدة الإسرائيلية، فقامت على مدار سنوات من خلال **جامعة الجزر العربية** بإصدار البيانات الاستنكارية الرافضة للاحتلال، واحيانا مادعمت **المقاومة الإماراتية.**

ودارت الأيام وما حدا صحي والكل نام، باستثناء رجال الثورة الاماراتية الاشاوس، المتحالفين مع الثورات القديمة مثل الثورة الفلسطينية والاحوازية والجنوب إفريقية والفيتنامية والكردية والكتالونية والاسكتلندية الذين رفضوا الاحتلال الطرشاحي المدعوم من الولايات المتحدة الإسرائيلية ورفضوا أعلان الطرشاحيين قيام دولة فلفل في أرض الإمارات العربية.

المقاومة الإماراتية المسلحة وإثر متغيرات عالمية كثيرة، تعلمت الدرس، ولجأت للحل السياسي والسلمي متأملة دعم جامعة الجزر العربية كظهر وسند وساعية للاعتراف بالجزء المتبقي من الإمارات دولة لها، ضمن معادلة دولة ثم تطبيع

الجزر العربية، لا سيما بعد اتخاذها صفة العضو المراقب في الأمم الملتحمة.

إلا أن مصالح الدول الفيزيائية والالكترونية متغيرة، والشعوب ملّت من الحروب والثورات لا سيما ونحن في العام 2220 م فما بالك بأولئك الفلسطينيين الذين مازالوا يقاومون!

في الضفة الإماراتية المحتلة والتي تشمل أجزاء من ما كانت تسمى دبي والشارقة امتلأت ال20% من المساحة الأساسية للبلد المتبقي بالمستعمرات أو المستوطنات الطرشاحية!

ورغم أن هذه المساحة بالضفة الإمارتية، مع الفجيرة (نظيرة غزة) هي ما يطالب الإماراتيون قيام دولتهم عليها الا أنها نُخرت بآلاف المستعمرات/المستوطنات! الطرشاحية

في هذا العام الذي انتشر فيه مرض خبيث يصيب الدماغ اسمه مرض (مخونا) نسبة للمخ، أوما أطلق عليه لاحقا اسم **مرض (مخّيد 219)** أعلن رئيس الولايات المتحدة الإسرائيلية خطته للإزدهار الالكتروني على قاعدة تمكين دولة فلفل والطرشاحيون من إطباق كل أيديهم على الضفة الإماراتية المحتلة، فقطع المال والدعم العربي وغير العربي عن السلطة الإماراتية المطالبة ب20% من الأرض والمنخورة بالمستعمرات وتهديد الضم.

الموقف الرسمي للسلطة الإماراتية كان مازال يفترض الدعم والسند من الجزر العربية عامة، ومن أحرار العالم

لولا أن جاء رئيس الولايات المتحدة الإسرائيلية ليعلن خطته للإزدهار في الليل والنهار المقدمة لدولة فلفل وطرشاحييها وللسلطة الوطنية الإماراتية.
على استحياء شديد رفضت جامعة الجزرالعربية العرض الإسرائيلي، الى أن قامت مملكة المحرّق والإمارات العربية البصراوية بالاعتراف بدولة فلفل المحتلة والتطبيع معها مخالفة كل قرارات جامعة الجزر العربية...
ثار الإماراتيون على أخوتهم من دول الجزر العربية.
لكن الدنيا تغيرت والشعوب تريد أن تعيش فقط...
والأفكار والثقافة الجامعة سقطت لدى الأمة، فلتذهب القضايا الكبرى والقيم الى الجحيم.
فنحن لا يهمنا بالحياة الا البطون والفروج ومتعة البصر وألعاب الطبجي التي غزت العالم! فما لنا واحتلال الامارات أو قبلها فلسطين ليذهبوا في ستين ستين!
انتهى الدرس.
قام الطلاب العرب بالجامعة يتندرون على حديث الأستاذ الذي حاول تلخيص مفهوم الثورة الإماراتية اليوم من عام 2220 م، وقبلها الفلسطينية والاسكتلندية، ودور الاحتلال في بضع كلمات... فكل الطلاب كانوا يركبون الدراجة الطائرة ويتقافزون بالهواء لا يعنيهم هذا الهراء الذي نطق به الأستاذ ولا يمثل لهم شيئا.

الرجل المقلوب!

كان يلبسُ فردةَ حذاء واحدة، ويسير على رأسه!
التقى مع جمع من الناس فلم يلقي عليه أحدٌ منهم التحية!
هم أصلًا قد تجاهلوه كما ظنّ، وربما لم يروه سهوًا-هل هذا معقول!، فكيف لاينتبهون لقدرته الفذة كما رآها على السير مقلوبًا أي على رأسه في وسط الطريق. إنهم حفنة من الأغبياء! وهو لديه الكثير.
هو مصرٌ على فعله الأثير والمحبب له، إذ يصحو في صباح يومه المنبعج بأفكار لاقيمة لها ولكنها بالنسبة له قمة التفكيراللولبي، فيلتقي مع نفسه الذابلة ليحدثها أنه الأجمل والأشجع والاقوى والأفهم ثم يستأذنها للسير على رأسه وبفردة حذائه اليسرى على الشارع.
لعل أحدهم يشكره على فعلته المقلوبة! أو يسأله عن قدرته العجيبة، أو يصورّه! أو لربما يجد من يُستثار من الفردة الواحدة أو من لون الجوارب الفاقع! فيقول لهم أنه الأشجع والاجرأ والأقوى باعتزاز!
كان يمارس مثل هذه العادة لفترات طويلة من الوقت مفترضًا في لا وعيه أو في وعيه أن يلفت الأنظار له ليبهرهم بالرد حين يسألون-وهو ما كان ينتظره- بالقول: أنه الأشجع والأفهم والأقوى
في يوم ربيعي مشمس كان يسير على رأسه منزلقًا على

المروج، ومستخدما في ذلك تقنية التزلج ذاتها التي يستخدمها الأطفال تحت أرجلهم، ولكنه باعتباره الأفهم والأقوى والأشجع وضعها تحت رأسه المقلوب على الأرض وسار بها مسافات طويلة...بلاطائل.
كانت الزلاجه تحت رأسه قابلة للتحكم منه رغم فردة الحذاء اليسرى التي يلبسها ورغم الجوارب زرقاء اللون في قدمه اليمنى المرفوعة الى السماء!
في هذا اليوم الربيعي كان قد أنهك ذاته العليا في تزلج الرأس، فلم يستطِع أن يستمر لفترة طويلة رغم المشاهدات الممتعة للأشجار والاطيار والعساكر المارة والمنطلقين لأعمالهم، والاطفال لمدارسهم، وابتسمات البواب عبدالجبار.
أبصر من أسفل الى أعلى حشدًا كبيرًا من الناس في الحديقة، هل هي وليمة! كانوا يأكلون إفطارهم مفترشين بساطًا مزركشًا بالنقوس العربية الجميلة واضعين عليه اللذائد، وهو ما أثار في نفسه الرغبة بالأكل فهو جائع منذ أيام، رغم أنه الأقوى والأشجع والأفهم.
اقترب برأسه المتزلجة ورجليه المرفوعة الى السماء من المتنزهين، وبدأ يقوم بحركات دائرية ولولبية برأسه المقلوب على الزلاجة متأملًا أن يدعوه أحد المحتشدين للوليمة..فالجوع اقوى من الشجاعة والإبهار والفهم والقوة، ولكن هيهات أصيب بالكلل والانهاك لكثرة ما سار على رأسه محاولًا أن يظهر للناس عامة أنه الأشجع والأقوى والأهم والاجرأ.

في الحقيقة هم لم يروا فيه أي من هذه المميزات العظيمة، كان سيبهرهم لو سألوه!

قلة قليلة ممن التفتوا اليه للحيظات، سار في حال سبيله فلم يرى فيه الا بهلوانا متلونًا يحاول أن يجذب الناس بحركات لولبية لا قيمة لها الا في موسوعة الغرباء والمتشردين.

كان يحدّث نفسه أن ما يفعله شيء يجلب الفخر والعظمة ويدخل في موسوعة العظماء والموهوبين الذين من المتوجب تكريمهم بمجموعة من الأوسمة و«النياشين»!

طرق باب الدولة برأسه لعلّه يجد من ينتبه له أولًا! لقد تواضعت مطالبه! ولكن الغباء من الآخرين كان حقيقة ردة الفعل كما فهمها لوحده! فلجا للصحافة التي تعاملت معه ببرود خاصة في ظل صحافة بدأت شمسها تغرب، وسلمت رايتها للفضائيات، والتي أيضا بدأت تلملم ذاتها وترسم خطًا متقاطعاً مع وسائط التواصل الاجتماعي على الشابكة.

بعد أكثر من عشرة أيام مجهدة وشاقة من المشي أو التزحلق على رأسه بفردة حذائه اليمنى، عفوًا اليسرى المنطلقة للسماء وجوربه الأزرق لعله يُسأل فيرد، ولعله ينال التقدير والتكريم والاعتراف بأنه الأقوى والأشجع والأفهم، أو على الأقل لعله ينال الاعجاب والرضا! ورغم كل ذلك فإن ما تمناه كان سرابًا.

انحدرت أمنيات الرجل المقلوب على رأسه، وهو الأشجع والأجرأ والأقوى، لمجرد أن يلفت الانتباه لقطط الشوارع.

المجموعة الثانية:

كراس صغير مبلول

كُرّاس صغير مبلول!

الصناديق

كان فتحي يحادثني ويُسلّيني فكثيرًا ما أجد نفسي منعزلًا بين أوراقي وحاسوبي المحمول ودفاتر كتاباتي الكثيرة، وبين مراجعة مخطوطات كُتُبي وإعداد محاضراتي فأغرق فيها حتى أذنيّ فلا أرى ضوء الشمس إلا قليلاً.

فتحي هو الجار، جارُ المكتب الذي ألجأ إليه للحديث والحوار المريح، لا سيما وأن حواراته تأخذك بعيدًا عن عشق الورق والكتابة المُجهِدة والقراءة، وبعيدًا عن الأقلام وحديث الأحرف والجُمَل، بل وبعيدًا عن طنين العبارات الرفيعة والأفكار الكثيرة المتدافعة التي تهزني هزًّا، فتؤرقني أحيانًا وتبهجني غالباً، فأنا صاحب البهجة وكاتب دفترها الأول.

فتحي هذا هو صاحب المنجرة التي تجاور مكتبي في ذات البناية حيث مقرّ عملي بمركز الدرسات الاقليمية، وكلّما مررتُ صباحًا صاعدًا لمكتبي أراهُ قد سبقني وفتح منجرته وبدا منهمكًا في نشر لوح خشب أو صنع طاولة جميلة... وتمرّ الأيام... والتي منها أو فيها اقتطف أوقاتًا للراحة من أعباء العمل اللذيذ -والمرهق في ذات الوقت- مع فتحي.

تضايقت هذا اليوم لأنني لم استطع أن أكتب! بحسب ما كان مطلوبًا مني حيث أن أمامي كدسًا من المراجع اللازمة لإعداد بحث، فأحسست بالضيق والتعاسة، رغم أن عشقي الكبير للأفكار الجديدة المدوّنة بالقلم -ولاحقا للوحة المفاتيح- أسبغ

عليّ صفة العشق والسعادة، وكما كان ردّ فعل أغلب قُرائي: أنك شخصٌ متفائلٌ وايجابي، وتبعث فينا الهمّة والنشوة، المهم أنني هذا اليوم كنت تعِسًا، هكذا أحسست.
نزلتُ من المكتب في الطابق الثالث لأقابل فتحي في منجرته على مدخل البناية، وكان النجّار يجلس على مقعد خشبي صغير بعيدًا عن أدوات النجارة ويشرب الشاي الأحمر الثقيل ، وإذ رآني أطلّ عليه أشار عليّ بيده بالجلوس وشُرب الشاي.
ابتدرني فتحي بالسؤال عن كتاباتي وجمهوري العريض الذي معظمه من فئة الشباب، وهو أي سؤاله ما أسعدني كما في كل مرّة يسألني فيها، إلا أنه هذه المرة أدرك ضيقي أو حزني الذي لمحه بملامحي فسألني عن السبب فقلت له عن السبب الصغير لضيقي أو عدم سعادتي الآن، استمع وكأنني أحكّ له على جرب! ففتح قلبه وهي من مرّاته التي كانت قليلة التي ينطلق فيها كثيرًا، الى أن تتباعت اللقاءات بيننا.
قال فتحي من الحِكَم والأفكار والشوارد ما أفادني، قال: أنت ككاتب تعلمُ أكثر مني أن في العقل مخازنَ عديدة... مخزن للأفكار، ومخزن للمواقف، ومخزن للعواطف، ومخزن لذكرياتك مع الأشخاص، ومخزن للأحلام ومخزن للخيالات... وفي كل مخزن صناديق متعددة.
ففي مخزن الأفكار صندوق للأفكار القديمة، وصندوق آخر للأفكار الناعمة وثالث صندوق للأفكار الناهضة ورابع للأفكار الموثوقة وخامس للانهزامية وسادس للأفكار العفنة

أو سلّة المهملات في عقلك ....وفي كل صندوق مجموعة كرّاسات أو دفاتر تشرح وتدوّن وتوضّح، وكذلك الأمر مع المخازن الأخرى وصناديقها ودفاترها.
لأول مرة أسمع مثل هذا الكلام العميق! استغربت هذا الوعي وهذا التدفق، وهذه الثقافة التي ما ظننتها تأتي من نجّار! وكأنه أنتبه لاستغرابي وتغافل عن ذلك، ثم أضاف لِما كان يقوله: بالنسبة لي أنا على عكسِكُم أنتم معشر الكُتّاب والاعلاميين والمفكرين والأساتذة والأدباء المبتهجين دومًا، فأنا أهتم كثيرًا بمخزن المشاعر وصناديقه.
قلت: ونحن أيضًا
قال: نعم، ولكن مشاعرك دومًا متفائلة وسعيدة ومرتبطة بالكلمة
قلت مبتسمًا: بالكلمة واللحن معًا
قال: ليكن.
فأضفت: وربما عشق الكتاب بما يعنيه من حياة ثانية كان السبب.
قال: ربما، ولكن دعني أكمل لأقول لك إن أذنت لي أومأت برأسي موافقًا
فنظر وتابع: إن مخزن المشاعر عندي فيه صناديق بالعشرات إن لم يكن بالمئات لأنواع المشاعر.
لدي صناديق عديدة وفيها دفاتر كثيرة حول الانزعاج والقرف والحزن والاكتئاب والقلق المُقعِد والتراجع والغضب والنقد

والخوف والتردد والكراهية والإحجام والشكوى والعناد والشتم والاحتقار والغيظ والنفور و....

قلت:يكفي.

فاكتفى من التعداد، وأكمل فكرته مسترسلاً: من هذه الصناديق الكثيرة لمشاعري ... كان صندوق السعادة صندوقا صغيرًا وهو الصندوق الذي حاولت أن أجد فيه كراريسًا! فلم أفلح، إذ لم أجد بالحقيقة إلا كراسًا واحدًا ببضعة سطور.

تعجبت!

فانتبه واستطرد: في داخل هذا الكراس الصغير كُتِب فيه أن السعادة مرّت عليّ خلال أعوامي السبعين خمسُ مرات فقط.

قلت باندهاش فاضح:فقط!

قال: فقط، وأكمل مُعدّدا: مرّة حين مسحت أمي بيدها على شعري وأنا صغير،ثم ماتت.

ومرة حين شكرني مدرس الرياضيات بلُطف

وثالثة حين تغزّل عميل بخزانة صنعتها له بإتقان وشكرني كثيرًا معبّرا عن الامتنان

ورابعة كلما رأيت وجهًا باسِمًا صبوحًا

والخامسة: غامضة، لا أتبينها ولكنها تسعدني.

قلت: أولهذا الحد! بينما باستطاعتي على العكس منكَ أن أعدّد لك فترات الشعور بالتعاسة القليلة التي مرّت بي، هذا الى جانب كرّاسات المشاعر السعيدة في مخزن المشاعر في عقلي وذاكرتي ، عموما لا أريد أن أشفق عليك يا فتحي فلربما

أنت لم تفتح المخزن جيدا! أو لربما تهت بين الصناديق؟ ودعني اتساءل متلهفًا عن السعادة الخامسة الغامضة لعلك تتذكرها!؟ فبكى.

فتحي والمطر

كان الجو ماطرًا وكنت أسرع بالدخول الى البناية التي يتموضع فيها مكتبي، إلا أنني مع الدرجة الثالثة صعودا على السلم غيرت رأيي وعدت لمتجر فتحي النجار في واجهة البناية وبعد التحية الصباحية و ابتسامة فتحي المختومة بالحزن، استأذنت بالجلوس فهز رأسه وهو منشغل بتفقد خزانة.

جلس بقربي وصب لي كوبًا من الشاي وتابع حديث الأمس حول مخزن الأفكار والذكريات وكأنه كان ينتظر حضوري. ولما كان توقفه الفجائي عن تعداد أسطر سعادته في دفتر السعادة الصغير قد انقطع بالبكاء فإنه تجاوز الأمر وطفق يتحدث ونظره نحو البعيد وأنا ما بين مستمتع بالمطر المتساقط بخفة والسيارات تعبر الشارع المطلّ على متجر فتحي مبللة بالماء الذي يكاد يطرق الواجهة الزجاجية.

قال فتحي توفي والدي منذ سنوات قصيرة

قلت: الله يرحمه.

أجاب: تعيش. واستطرد: وبعد وفاته اقتسمنا الإرث نحن أبناؤه الأربعة وعدد من الأخوات وكان نصيبي قطعة من الأرض مجاورة لنصيب أخي الأكبر الذي استحوذ على

البيت العتيق وعلى محلات الوالد وهي محلات في أكثر من مدينة متخصصة بالأثاث وصناعته وبيعه وهي للحق أقول التي كانت تجعل من عيون الجميع تضرب بحُسّادها لما آلت اليه حالنا من نعيم في حضرة الوالد رحمه الله، الا أن أخي الكبير ونتيجة لعمله المباشر مع والدي اكتشفنا أنه أقنعه بتسجيل الشركة بكافة محلاتها باسمه ما لم نكن نتوقعه وإن بدت عليه علائم الجشع منذ وقت مبكر.

المهم أننا تقاسمنا الأرض فقط، حسب الشرع والقانون، فالأموال مرتبطة بالشركة وهي جزء منها ورغم الجدال العريض الذي نشأ بيننا نحن الأخوة الأربعة والأخوات حول حقنا في مال أبينا في المصارف والشركة الا أن الأوراق الرسمية قد وقفت حائلا بيننا وبينه، فهو المتحكم وهو المالك الرسمي للشركة والحسابات.

امتد نظر عبدالسلام وهو اسم أخونا الأكبر الى ما كان لنا من حق، فحاول أن يشتري الأرض منّا بتراب المصاري (المال) ولكن أمام إصرارنا تقبل الأمر على مضض، ولم يسكن أبدا فلم يكف عن مضايقتنا المرة تلو المرة وبطرق متعددة.

في أحد أشد المرات مضاضة كانت حين طفق يبني سورًا بيننا وبينه أي بين أراضينا وبين قطعة أرضه في عمق أراضينا نحن اخوته دون اهتمام بما نقوله.

فكانت الجرافة تحفر في المطر، وكاد الحائط يبنى لولا أن وسّطنا المختار وطبيب العيادة الصحية وصاحب محل

الدجاج المجاور لأرضنا، ولولا تدخل المحافظ ووجوه العشائر والعائلات والا لكنا اليوم لا نحتكم على أقل من الربع من أراضينا، ودعني أقول من أرضي لأن اخوتي الآخرين تضامنوا لاحقًا معه.

قلت: هذا وضع كثيرا ما يتكرر في أكثر من مكان.

قال: نعم، ألا يؤلم!

قلت: بالطبع يؤلم.

قال: وأكثر من ذلك فهو عندما بنى السور الذي يحيط ببيته جعله أعلى من قامة الرجل بارتفاع يزيد على مترين كي لا يرانا ولا نراه، ولربما رغب بالوصول للسحاب واحتكار المطر.

قلت: المطر لنا جميعا، ولكن السور واقٍ لك من رؤيته هو.

قال: كنت أود إدامة النظر للبيت العتيق الذي سلبه منّا.

قلت: الله المستعان.

الإساءات والتغافل

كثيرا ما شعرت من إخواني بالإساءات الكثيرة، ومنها القول السيء بحقي ومنها التغافل والإعراض والتجاهل، والحسد الواضح.

فعندما كنت أتحدث بالمجالس العامة في الكيمياء وهو تخصصي الجامعي كانوا ينظرون لي شزرًا لي ليقولوا بعيونهم المشتعلة نارًا، أنك مجرد نجار!

وكأنها أي النجارة عار وليست مهنة جميلة بل وفن راقٍ

وعندما كانوا يزوروني بالمحل، أو هكذا ظننت أنهم يزوروني لم يكن الأمر كما ظننت بالبداية، فلم يأتوا للاطمئنان علي وإنما لأن الحسد و الغيرة من نجاحات أعمالي أعمت قلوبهم فلا يتورعون عن الإساءة لي.

كانوا يتغافلون عن ابداعاتي بل ويعرضون عني بوجوههم والى ذلك يقومون بالحطّ من شأن ما أصنع ويثيرون كافة الشكوك حولي: فهو نجار سيء، وهو ينقل عن تصميمات الآخرين وهو عنده تشطيبات غير متقنة

-لا حول ولا قوة الا بالله

-تصور أن أسمعهم يسيئون لي بحضوري وفي محلي وأنا هذه المرة أتغافل؟

-كيف ذلك؟

-في إحدى المرات كان أخي الأكبر في المحل يحادثني بشأن زواج أختنا، فجاء عميل مع زوجته كما أعتقد يطلبون طاولة سُفرة بمواصفات معينة، فذهبت لاحضار صور لبعض منتجاتي وربما قد أطلت الغياب قليلا لأنني عرّجت على الحمام لأغسل يديّ وما أن عدت للزبون وحرمه بالصور فإذ بي أفاجأ أنهما يستمعان لأخي.

أخي الذي سمعته يقول لهم: لا تلقوا له بالًا! فصناعته ضعيفة، ونحن ندعمه كإخوة كي لا يبقى عاطلا عن العمل فقط! وأنصحكم أن تشتروا من محمد النجار على بعد شارعين من هنا وأشار لهم بيده نحو البعيد.

نظر لي الزبون نظرة لم أفهمها جيداً أهو يشفق عليّ أم يتشكك، وكانت نظرته المبهمة قد استقبلتنني وأنا قادم إليه حاملاً الصور.

ودون أي كلمة أمسك بيد زوجته وهرب

-لقد سمعت شتيمتي بأذني وتغافلت

-وماذا فعل أخوك عندما رآك؟

-لا شيء

-كيف ذلك ؟

-استمر يحدثني عن خطيب أختنا، وكأن الحديث قد انقطع لرشفة من كوب الشاي ؛ تصور!

-أمر محزن ومضحك بذات الوقت

-صحيح

-ألم تسأله لم خرج الزبون؟

-بل سألته وتصور ماذا كان جوابه

-ماذا

-أنهما أخطآ بالمحل؟

حزن درجة سبعة!

كان فتحي عميق الإحساس بما يدور حوله الى الدرجة التي جعل فيها للمعاناة والأحزان أرقاما متسلسلة فهذه معاناة الدرجة الأولى، وتلك معاناة الدرجة الثانية وصولا للدرجة السابعة بحسب مقياس ريختر والتي تناظرعنده القوة التدميرية.

قال فتحي: حزنت عندما توفت أمي وأنا صغير، وسرت هائما على وجهي فترة طويلة ولم يحرمني من العذاب إلا جارتنا أم سعود التي كانت من صديقات أمي، فعاملتني دونا عن اخوتي معاملة لطيفة ربما لاحساسها بمعاناتي ولقربها من أمي وطبائعها الرقيقة.

و حزنت عندما تقدمت في مادة الحساب ولم أجد من والدي أي ردة فعل تثني على تقدمي ولو بكلمة أو حتى نظرة فهو لم ينظر اليّ حتى اقنعت نفسي أنه لم يسمعني!

و حزنت كثيرا عندما أحببت صديقتي في الجامعة لثلاث سنوات متتابعات، وهي التي قابلت اعترافي الخجول بالحب بالسخرية وكأنني غراب يخطب ودّ حمامة.

نعم حزنت كثيرًا في مواقف كبيرة ومواقف صغيرة، ووضعت في عقلي سجلًا متدرجا صنفت فيه الأحزان بالأرقام

آراك صامتًا؟

قلت: أنا أستمع، وها أنت تعود لفكرة الصناديق والكراسات في دماغك، فتفتحها!

قال: وهذه قصة مسجلة في كراسة في أحد صناديق أحزاني

قلت: من سجلات أحزانك أن يستمع لك أحد؟

قال: بل على العكس ألا يستمع لي أحد، بالطبع، ومن يحزن لمن يستمع له!

استطرد: في الجامعة درست الكيمياء كما قد أكون قلت لك، وكنت فذًا في المختبر أكثر من الدروس النظرية حتى تمنيت

أن تكون كل الامتحانات في المختبر، وهو بالطبع ما لم يحصل، ورجوت أساتذتي واحدًا تلو الآخر ليمتحنوني عبر التجارب المخبرية ولكن لا حياة لمن تنادي. لقد كانت يدي اكثر قدرة وتطورًا من ذاكرتي السمعية، فلم ألقَ الا الرفض والسخرية فحزنت كثيرا بدرجة ستة!

و حزنت عندما اثبتّ أنا، نعم أنا أثبتّ نظرية بالتجربة العملية حيث رفضها الأساتذة لأنها ببساطة تخالف الطريقة التي جاءت بالكتاب الأجنبي المعتمد! فكيف يعترفون بعقل عربي وهم مطواعون أوفياء للفكر الأجنبي؟ وكيف لطالب أن يتفوق على أساتذته حاشا وكلا!

لم يُعترَف بنظريتي هذه إلا بعد تخرجي بسنوات، وأثناء استضافة الجامعة لأستاذ أجنبي، حيث كانوا يحادثونه عني ونظريتي من باب التهكم! إلا أنه باهتمامه بالموضوع وبحث عني وشكرني، فحزنت.

-حزنت لأنه شكرك؟

-لا بالطبع، حزنت على سنوات التهكم، وعلى أصحاب العقول النائمة والمأسورة للأجنبي.

تابع قائلا: تزوجت لعلّي أفرح رغم الألم الذي يحاصرني بأرقامه الكثيرة ، تزوجت بطريقة تقليدية من إحدى القريبات ولم تنقضِ الأيام العشرة الأولى حتى ابتليت بما لم يبتلى به سقراط من زوجته... زوجة شرسة ذات أسنان حادة.

أحزاني الصغيرة وتلك الكبيرة من واحد الى سبعة تتكرر

معي يوميًا فلا أجد مساحة الفرح.
كنت استمع لفتحي في منجرته، المطلة على الشارع، ويمر علينا الوقت بكآبة الغيوم التي تغطي عينيه.

خزانة أجنبية

أنت لا تعلم مقدار الجهد المبذول لصنع خزانة أو كرسي أو حتى رف لحائط؟
قلت: أنا أعلم مقدار الجهد لكتابة كتاب أو تصليحه أو إخراجه أو طباعته.
قال: بالطبع، ولكن هل تعلم مقدار الجهد المبذول لنجار يعمل على مشروع!
قلت: ولماذا هذا؟
قال: لأن الجهد العضلي الذي أبذله ليس آليا أبدا، فلست مَكَنة ولست أداة كهربية وانما أنا إنسان
قلت: نعرف أنك إنسان ولست دبًا قطبيًا، أعذرني وما الجديد؟
ضحك على سيرة الدب القطبي وتابع: أقصد لأنني إنسان، ولست آلة فأنا أفكر ودومًا، ما يكون تفكيري سابقا على عملي اليدوي. فيما يظن بعض الناس أن العمل اليدوي عمل حقير.
قلت: لا أظن ذلك؟
قال: وما الذي لا تظنه، أن العمل اليدوي حقير أم أنه غير

حقير؟
قلت: أقصد لا أظن أن الكثرة من الناس تحتقر العمل اليدوي.
قال متهكّما بمرارة واستنكار: لذلك تجد تخصصات في الجامعات في الصناعات وفي علم الآلات الثقيلة والدقيقة، وفي النجارة أو الحدادة وفي تشغيل المصانع والاختراعات؟
فهمت سخريته السوداء فتابع: العمل النظري وكما ندرس بالجامعات يجعل النظرة للعمل اليدوي أو الصناعي وحتي الزراعي وكأنه دوني.
قلت: في هذه لك الحق.
قال: ومن هنا أتابع فأقول أن عملي اليدوي يسبقه ثلاثُ مراحل الأولى هي التفكير والثانية هي التخطيط والثالثة هي وضع البدائل قبل الشروع بالتنفيذ، أرأيت لذلك فلم أكن كنجار الا مفكرًا ثم فنانًا.
قلت: يا سيدي آمنا.
قال: أولم تكن قد آمنت؟
قلت: سلّمت أمري اليك وآمنت
قال: ورغم رأيي هذا وحسن صنعتي، إلا أنني أقابل من بعض الزبائن بالاحتقار والاستهتار حتى لو صنعت لهم تحفة فنية أجمل مما تصنعه شركة (إيكيا) الشهيرة للأثاث الرفيع.
قلت: أنا اتفق معك تماما فيما يتعلق بأهمية العمل اليدوي

فلا تقدم ولا تطور ولا نصر لأي أمة أوشعب لا يأكل مما يزرع ولا يلبس مما يخيط، وإلى ذلك لا يصنع وأن فعلها بأشياء بسيطة لايستخدم ما يصنع، بل ويحطّ من قدر منتوجاته وصناعاته!

قال: وما يفجعك، ويزيد مأساتي الى أحزاني أن الناس تتفاخر بالأجنبي وتحقّر الوطني أوالمنتج العربي حتى لو ضاهى الأجنبي أو تفوق عليه!

قلت: صدقت، هم أصلا يحتقرون ذواتهم باحتقار لغتهم وعروبتهم وحضارتهم

قال:خذ هذه! (بمعنى استمع لي سأقول لك شيئا هامًا)

قلت:هات! (وكأنه يقذف لي بشيء)

فقال: دخلت المحل عندي امرأة جميلة... تنظر اليّ من خلف نظارتها التي تغطّي نصف وجهها، وتكلمني بطريق مستفزة ومتعالية أن: أصنع لي خزانة كهذه، ومدت لي الصورة.

تأملتها وضحكت.

غضبت قائلة بعجرفة بدت على زاوية فمها: لِم تضحك؟

قلت: أنا معجب بهذه الخزانة بالصورة

قالت: نعم، يجب أن تعجبك، فهذه صناعة أوربية راقية!

قلت: فلم لا تشترينها؟

قالت: نفدت من المحل لسوء حظي، وأرسلوني لك لتصنع لي مثلها، فأنا مضطرة باللجوء اليك لتقلد لي البضاعة.

حزنتُ كثيرًا للمرأة التي جاءتني مضطرة! ولأقلّد لها بضاعة أضحكتني صورتها!

لكنني قلت لها حاضر سأحاول

قالت: أريدها نفس الشكل تمامًا، راقية

قلت: حاضر...راقية.

قالت وهي مغادرة: ولا تتأخر عليّ، وذهبت كما دخلت وأنفها مرفوع وكأنها تمنّ عليّ.

أخذ نفسًا حزينًا وأغمض عينيه ثم قال: أتعلم المفارقة؟

قلت: ما هي المفارقة؟

قال: المفارقة في الصورة التي جعلتني أضحك

قلت: لست ادري!

قال: الخزانة في الصورة من صنعي أنا.

قلت: معقول!

قال:هي بعينها، وكنت قد صنعتها لعروسين منذ عدة أعوام، وأعرفها تماما وأتقنت صنعها لأن العروسين بديا لي متواضعي الحال، فخدمتهما بمحبة عميقة الى الدرجة التي أبهرتهم وأسرّوا لي انها تشبه تلك الأجنبية كثيرًا جدًا، لذا سيذكرون لمن يسأل أنها أجنبية كي لا تنتقص في عيون الآخرين

قال فحزنت كثيرًا الى الدرجة القصوى.

قلت ولماذا هذه المرة؟

قال: لأنهما أي العروسين بدلاً من أن يقدرا صناعتي طمسا

اسمي؟
مضيفا: وهاهي المرأة الجميلة المترفعة تفعل بي نفس الشيء، أفلا يحق لي أن أحزن ثلاث مرات بل وبدرجة مضاعفة!
قلت: لك أن تحزن مرتين الأولى من العروسين والثانية من المرأة الجميلة فلم الثالثة؟
قال:الحزن الثالث أهم وأعمق، وهو حزني على انعدام الثقة بالنفس، بأنفسنا.

شكوى مقرّرة

أصبح من أبجديات يومي أن أعرج على صبحي النجار جار المكتب القريب، لاسيما وأنني استثمر، ولا أريد القول كلمة أستغل لما في الاستغلال من منفعة لي ومضرّة للآخر، بينما الاستثمار يحيط بالجميع.
أنا أستثمر ما يقوله في كثير من دراساتي خاصة تلك التي تنظر في النفس الإنسانية، وما تحفل بها من صراعات واضطرابات متعدّدة، وهي ما وجدته في سردياته. في القراءة في الكتب تكتسب أكثر من حياة كما كان يقول الأديب والمفكّر عباس محمود العقاد ولكن في لقاء الناس ومحاورتهم أو الاستماع لهم حياة أو حيوات أخرى أيضا، فالاستماع لتجاربهم وغني أحاديثهم لمن يريد الاستفادة الكثير وفي أي من الاتجاهات التي تشغله فن أم فلسفة أوعلم نفس أو اجتماع أو غيره.اليوم عندما دلفت للبناية باكرًا كان محل

فتحي مغلقَا فاستغربت.

نظرت للباب المغلق طويلًا، ثم صعدت الدرجات القليلة الى مكتبي إلا أن ذهني ظلّ معلقا باغلاق المنجرة! في اليوم السابق شكى لي فتحي بؤسه مع زوجته التي لاتختلف كثيرا برأيي عن النساء التقليديات النمطيات التي تريد من زوجها كل شيء وبالمقابل تفشل في الطلب من حيث الشكل لا المضمون حين قلت لصبحي ذلك قال لي دعك من هذا الكلام والتفلسف ، فمع زوجتي لن تجد مثيلا ولا تستطيع بناء قاعدة.

قلت له حينها أن تكرار أي حالة لعدد من المرات حين ثبات العوامل الأخرى قد يشكل قاعدة وخذ مثلا وهممت أن أكمل فقاطعني وقال لي برجاء أن تتركني وهمي لا أريد سماع نظرياتك فصمتّ، وقلت له: هأنذا كلي آذان صاغية. عدل صبحي من جلسته وترك المنشار الذي كان قد أنجز فيه عمله، وطلب من العامل لديه بضعة أمور وقال لي: زوجتي التي ارتبطت بها بشكل تقليدي لاتمل من أمور ثلاثة متكررة يوميا كما المقرر .

ضحكت من وصف المقرر وقلت ماهي المقررات؟

قال:اسمع وتمعّن. لانها قد تدهمك عندما تتزوج؟

قلت: لن أتزوج.

قال:سنرى.

وأكمل قائلا: هي الشكوى اليومية التي لاتنقطع مطلقًا فهناك

دوما سبب، والثاني وهو مرتبط بالأول أي البكاء بسبب وبلا سبب حتى يتحول البيت يوميا الى مناحة لا أدري لماذا وكيف ومتى تنتهي، أما ثالثا فهي لاتمل طلب الأموال قلت له: أنت تكبّر الموضوع فالشكوى من الاساءات أو الظروف أو الاخفاقات شيء طبيعي ودمعة المرأة دوما قريبة لخدها أما طلبها المال فهو حقها.

قال: لربما لم أشرح جيدًا فأنا نجار وهي ماليًا منشار، وهي بالدموع النازفة كالغراء الذي ألصق به ألواح الخشب، أما شكواها فهي كالمسمار الذي يتلقى الضرب المتكرر على رأسه.

قلت: إذن توقف أن تضربها على رأسها فيتوقف المسمار عن الانين!

قال: شكلك لم تفهمني جيدا فأنا هو المسمار المعذب وهي المطرقة يا أستاذ!

أضاف: خذ مثلا اليوم إذ كانت تعاني من آلام في بطنها وذهبنا الى الطبيب ووصف لها الدواء ولم يمر اليوم الأول إلا وهي تشكوني لله كالعادة! فأنا المقصر لوجع بطنها وألم أكتافها وطنين أذنيها وصعوبة حركتها، وليس جوعها الذي لا ينفع معه شبع! وليس إدمانها على الأكل غير الصحي ما حذرها منه الأطباء لذا كان يجب أن يكون عندها شخص أو شيء ما تُلقي عليه بالملامة مثل أن: البيت

صغير، أو ليس عندنا أثاث جديد! أو أن إبنها عبدالله هو السبب أو أنا بالطبع، أو لك ان تختار من قائمة المتهمين أو المُلامين المئات ممن يتحملون مسؤولية ما يحصل لها.
قلت له هل قرأت قصة زوج من الجوارب للكاتب التركي الساخر عزيز نسين؟
قال: وهل تراني أجد وقتا للقراءة قلت إنها قصة قصيرة قد تتشابه مع وضعك مع زوجتك، قام من مقعده وامسك المطرقة وبدأ في عمله.
لكن باب المحل مازال مغلقا.

أجمل طاولة في الشرق الأوسط

كان الجو باردًا لا سيما وأننا في فصل الشتاء والمكتب عندي ليس فيه الا مدفأة تعمل على الكاز والحصول على الكاز ليس بالامر الهين لأنني أضطر كثيرًا لاستئجار سيارة أجرة حاملًا معي وعاءً ليسكب فيه الكاز من محطة الوقود وسيارات الأجرة التي تقبل حمل الوعاء الفارغ تمتنع كثيرا عن حملك مع الوعاء (الغلن أو التنكة) خوفا من الرائحة أو من انسكاب قطرات من الكاز (الكيروسين) على الأرضية أو المفرش.

بالأمس حاولت مع أكثر من سيارة، ولم أفلح في نقل تنكة الكاز وكدت أتركها أمانة في المحطة.

ولما كنت أهم بالعودة الى المكتب إذ تصادف أن رآني صبحي النجار وهو يقود سيارته، فنادى علي، ولما علم بمشكلتي حملني بسيارته المخصصة لنقل الاخشاب أنا ووعاء الكاز الى المكتب فلم يكن مني بعد وصولنا إلا أن دعوته على فنجان قهوة في مكتبي.

حاول جاهدًا أن يتفلت من الدعوة بحجة العمل ووجدت أن أقل ما يجب ان أفعله هو أن أعزمه على فنجان قهوة.

أدركت لاحقًا أنه لا يشرب القهوة بل الشاي فقط الذي عوّدني شربه في المنجرة.

فتحي كان ممتقع الوجه وما بين حائر وغاضب وان كانت

علامات الحزن جزء من شخصيته إلا أنه اليوم كان يتألم كثيرًا.

قلت له: ما بك يا أستاذ فتحي

-لست أستاذًا

-طيب، ما بك يا أخ فتحي، افتح لي صدرك.

-ألا تراني افتحه لك دومًا

-نعم في المنجرة، وليس في مكتبي هنا.

-وما الفرق؟

-أنت اليوم في ضيافتي، وأنا شاكر لك على حملي مع وعاء الكاز.

-لا شكر على واجب الجيرة

تبسم فتحي ووضع رجلا على رجل: فعلا أنا اليوم غاضب لذلك تركت المحل وكنت ذاهبا باتجاه محل الحلويات الشهير لأطفح نصف كيلو كنافة لأهدىء أعصابي المتوترة.

-ولماذا تقول أطفح؟ بدلًا من آكل! وكأنك تنفّس عن غضبك بالحلويات

-هذه الحقيقة.

-لن أجادل، لكن ماذا حصل؟

جاءني زبون تبدو عليه علائم الأناقة والاحترام، وأراد أن أصنع له طاولة وسط ، لا مثيل لها بالشرق الأوسط!؟

-أوف. لأول مرة أسمع بذلك، طاولة لامثيل لها بالشرق الأوسط، ماهذا؟

-نعم والله، هذا ما قاله، ولكن أتعرف سبب انزعاجي؟
-قلت بالطبع، فهو يطلب طاولة لا مثيل لها بالشرق الأوسط!
-نعم هذا أولًا، فبما أنه لا مثيل لها فيجب أن تكون متميزة بما يعجب مزاجه الذي لم يفصح عنه لا باللون المطلوب، ولا بالحجم ولا بالطول أو العرض، ولا بنوع الخشب ولا بشكلها استدارة أم استطالة وسوى ذلك من التفاصيل الأخرى الكثيرة!
وأما ثانيا فعندما طلبت منه أن يقرّب عليّ الصورة ويفهمني أو يعطيني أي مواصفات لشبه ما أو لما يفكر به، عاد لتكرار كلمته أو جملته: أريد طاولة لا مثيل لها بالشرق الاوسط!
عدت له محاولاً أن أجد لديه الحد الأدنى من المواصفات أو صورة معينة، أو ليطلعني على شبه ما يريده من البحث عبر «العم غوغل» على الشابكة ولكن بلا جدوى، وهو يكرر: أريد طاولة وسط لا مثيل لها بالشرق الاوسط!
احتملته وقمت بجولة معه على عدد من الطاولات التي صنعتها، وعلى صور أخرى لدي فمازاده هذا الأمر الا تمسكًا بذات الطلب غير المحدّد الملامح: أريد طاولة لا مثيل لها بالشرق الاوسط؟
-فعلا إنه رجل مملّ.
-هذا ما أغضبني.
وأردف: وكتمت غضبي لأكثر من ثلاثة أرباع الساعة، وأنا أحاول أن أفهم ولكن بلاجدوى فآثرت الصمت لعله يقول

كلمة أو جملة مفيدة، ليلاحقني بالقول كما قلت لك: أبهرني بطاولة لا مثيل لها بالشرق الاوسط؟ وزاد: وإن لم تعجبني لن أدفع لك.

-فعلا طفح الكيل منه.

-قلت في نفسي هو يريد طاولة لا مثيل لها ولاشبيه بالشرق الأوسط؟! ولا يعرفها بل ولا يعرف مزاجه، وأنا لا أعرفه ولا أعرف مزاجه! وهو لم يصرّح باي تفصيلة ولو صغيرة لا عنه ولا عن مزاجه ولا عن مواصفات طلبه! وفوق هذا وذاك سيجعلني أصنع طاولة أو أكثر وقد لا تعجبه ولايدفع وأُنكَب أنا، وهو مصرّ على جملته العنيدة غير المفيدة.

-فعلا إنه أمر يُغضِب الحليم، فماذا فعلت؟

-لم أحتمل ذلك.

-ومن يحتمل؟

وتابع: أمسكته من قميصه ورفعته الى الأعلى، وجررته الى الباب ورميته خارج المحل، وقلت له: اتفو عليك أي بصقت عليه، وعلى الشرق الاوسط!

ضحكت عاليا، وقلت له -وكان قد وقف متأهبا للخروج من مكتبي الى منجرته- خيرًا صنعت، وماذا كانت ردة فعله؟

تصور قال لي: أنت أسوأ نجّار بالشرق الأوسط، ومضى.

مها والحاجز

عاشت مع أسرتها في ظروف متواضعة جدًا، فوالدها كان يعمل موظفًا في البلدية، المقصود بالمجلس القروي بالحقيقة، والبيت الصغير الذي ضمّ أسرتها كان ينقصه الأثاث حيث لا كنبات ولاطاولات ولا كراسي إلا من مجموعة من الفرشات للنوم كانت تفرد بالليل ويتم حزمها ووضعها فوق بعضها البعض قرب الحائط مع الصباح.

البيت المتكون من غرفتين وساحة بسيطة كان يتسع للأولاد في غرفة منه، وللبنات في الغرفة الأخرى، أما الساحة الصغيرة التي يضمها جدار البيت فكانت للدجاجات والضيوف

في هذه المعيشة البسيطة تربّت مها، ولما كانت البنت في العادات الأسرية المشرقية البالية مضطهدة من أمها وأبيها وأخوانها لا سيما وهي الكبرى فلقد عملت على تجاوز الضغط الذي عانته مع أسرتها بكبت المشاعر أحيانًا، وبانفجارها في أحيان أخرى عندما كانت تنطلق في برية البلد تحادث مجموعة من القطط، وتمارس عليها عُقدها وكبتها بسلخ جلدها ما شّكل سرّها الصغير رغم انتشار خبر القطط المسلوخة في البلد.

مها لا علاقة لها بعيون المها التي يضرب بها المثل، فملامح جمالها المتواضعة لم يكن للعيون فيها نصيب.

مها من البنات اللواتي عشن حياة قروية ضاغطة لسبب القيم المجتمعية القديمة من جهة، ولضغوط المعيشة من جهة

أخرى، وكل هذا لم يمنع مها أن تكون مناضلة طالما وقفت بالطريق في مواجهة الجيش الصهيوني الذي يستمتع باغلاق القرية أو باعتقال عدد من ابنائها وبناتها كما لم تملّ من رجم الحجارة على عصابات المستوطنين التي كانت تتعمد قطع أشجار الزيتون، والاعتداء على أصحاب الأرض، وكان لها من المآثر أنها عملت على القيام بعملية استشهادية أذاعت صيتها في البلد، فتحزمت بحزام ناسف استطاعت الوصول اليه عبر علاقاتها مع القطط وسلخها!

توجهت نحو الحاجز القريب من القرية والذي صُنع لتنغيص حياة أهل القرية، كما الحال مع عشرات القرى الأخرى ومئات المواقع في فلسطين.

كلما رغب الجنود وآمريهم باثبات عنصريتهم وتفوقهم على الأغيار نصبوا حاجزا أو شددوا الاجراءات عليه وكأنهم يملكون الأرض ومن عليها

توجهت مها نحو الحاجز وهي متحزّمة بالناسف تحت ثوبها متحدية اغلاق الحاجز الذي طال وطال معه القهر، وصرخت بهم أن افتحوه وإلا سأفجر نفسي فيكم

ضحك الجنود الذين كانوا يعبثون مع كلابهم.

ولهول الصدمة أمام مها فتحوا الحاجز الحديدي فلم يعد أي مبرر نفسي لتهديدها!

حارت...

فلم تعرف ماذا تفعل وشعرت بالخوف يتسلل الى قلبها،

وكانت قد حزمت أمرها إلا أن عزيمتها خارت مع فتح الحاجز الحديدي المانع لدخول السيارات.

وقفت في منتصف الطريق قبل الحاجز بقليل تنظر للخلف حيث القرية، والأمام حيث الجنود العابثين والمدججين بالسلاح يضحكون .....لقد أفسحوا لها المجال للمرور!

تقدمت بثقة المنتصر الذي فتح الحاجز المغلق منذ عدة شهور.

تجاوزت الحاجز بعدة أمتار... لا تعلم الى أين؟

ولم تعلم ماذا تفعل بالحزام الناسف تحت ملابسها!

ومن هول الصدمة وقفت متحجّرة ؟

لقد قالت لهم افتحوا الحاجز وإلا فجرت نفسي، ففتحوا وكأنها قالت الكلمة السرية: افتح يا سمسم!

بدأت حيرتها مما حدث تتقاطع مع حيرتها الى أين تذهب!

هي لم تكن عازمة على الذهاب لأي مكان، فالمكان هذا كان نهاية المكان والزمان!

وتتقاطع هذه الحيرة مع حيرتها فيما تفعل بالحزام الملتف حول بطنها وتحت ملابسها.

وفيما هي كذلك غارقة في بحر عجزها، كان أهل القرية قد اندفعوا نحو الحاجز الذي تم اخلاؤه للتوّ يصرخون باسم مها التي فتحت الحاجز! وأصبحت أيقونة البلد.

شخصية مها الأولية

لم يكن لفتاة مضطهدة من مجتمعها وعائلتها أن تعيش عيشة مستقرة فهي رغم أنها تحولت لبطل قومي، أو بطلة في مرحلة من حياتها، لأنها فتحت الحاجز الصهيوني فإن سرها بقي مكتومًا، وهي نتيجة الضغوطات والكبت عانت من شخصية مشوهة لها من المشاعر الأولية الكثير.

مها إن بكت طغت في البكاء فلا توسط لديها، وإن كرهت تمادت فظهر ذلك في ألفاظها القبيحة أوبممارستها لهواية سلخ القطط، فمابالك ان أحبّت فهي تذوب كقطع السكر وتنهار كليًا حتى تجد ممن أحبته ما لم تتوقعه فسرعان ما تنهار أيضاً.

لم تعرف إلا المشاعر الأولية، المشاعر الفطرية، المشاعر غير المتطورة تمامًا كمن لا يعرف من الألوان إلا ألوان قوس قزح السبعة، رغم عشرات الألوان الأخرى بمعنى أنها توقفت في سلة المشاعر عند حب وكره وحزن وشكوى وفرح فقط، ولم تتعداها لعشرات أنواع المشاعر الأخرى سواء القريبة أو المشتقة أو المغايرة لما ذكرنا.

بمعنى آخر لم تميّز مها بين الحب واللطف والاعجاب والامتنان والشكر والهيام والعشق...، كما لم تستطع أن تطور الكُره ليكون الفعل مفصولًا عن الشخص، الذي أفعاله قابلة للتنوع وبالتالي قد نتفق معه أو نتقبل منه فعلًا أو مسلكا ما اليوم ونرفض المسلك أو الفعل الآخر غدًا.

هي امتلكت المشاعر الأولية فلم تتمكن أن تبلور مشاعر

الشفقة مفصولة عن الحب، ومختلفة عن الحنان، وبعيدة عن التعلق.

ولربما لم تختبر مشاعر العتاب أو النفور أو القبول، أو السخط غير الغضب أو الغضب غير الحنق، أو غيرها من عشرات المشاعر المختلفة.

لذلك ظلت مشاعرها أولية ومنحشرة في إطارها الضيق، حتى إنك حين تحاول أن تفهم موقفها أو سلوكها تصطدم بحائط صلب من الاخلاقيات التي لا تتعدى عندها: إما أن تكون معي أو ضدي وإما أحبك أو أكرهك.

هكذا كانت مهاتي في تبصري في جوانب من جوانب شخصيتها ولك أن تتأمل معي وتقدر أين هي وأين أنا.

لذلك لك أن تجد في دماغي بما يتعلق بإخوتي أو بعض أصدقائي أو بما يتعلق بمها من صناديق الحزن الكثير وتجد ملفات وعددًا من الكراريس لا يحصى.

أما كراس السعادة فلن تعثر فيه إلا على نُتفٍ كنت استجديها لتكون!

لماذا غاب فتحي؟

غاب فتحي عن محلّه يومًا ثم تلاه عدة أيام وتعدّدت غياباته بعد ذلك وفي الفترات التي كان يفتح فيها المحل لم أجد لدي الحق أو الجرأة لأسأله عن أسباب الغيابات هذه لا بعد أول غياب ولا بعد ماتلاه من غيابات.

تركت له الأمر ولأن عملي ككاتب وباحث يعني التفكر والتأمل كما يعني البحث والتقصي فلقد استطعت الوصول لقرية فتحي المطلة على سهل جميل لا يزعج الناظر اليه الا مركبات الجيش الإسرائيلي ، وفيها استطعت معرفة بعض الأمور عنه بلا بحث وإنما ببساطة أهل القرى وهي البساطة التي زودتني بتفاصيل مجانية عن دراسته وأهله والبطلة زوجته.

يتباسط القريون في بلادنا العربية وفي فلسطين بالحديث، ويعتبرونه عنوان محبة وتقارب فهم زودوني بالكثير من القصص عن فتحي وصولاً لسبب غياباته الأخيرة المتكررة.

رغم معرفتي بالسبب بعد زيارتي للقرية، فانني تركت لفتحي خيار فتح الموضوع من عدمه لاسيما أنه من فتح لي قلبه ووثق بي منذ البداية فلاداعي للتسرع بدواعي الصداقة او الفضول الثقافي!

في مرات الحضور التي كانت تتقاطع مع الغيابات تحدثنا في أمور كثيرة من صناديق ذاكرته وفي عديد آراء، الى أن جاء اليوم الذي فاتحني هو بسبب غياباته

-أتعرف يا ابراهيم لماذا كنت أغيب أياما عن عملي؟

-وهل يجدر بي العلم؟
-كنت اتساءل
-الأمر لك
انطلق فتحي يتحدث دون أي ضغط مني، وبوجع يغرفه من منهل ماء او من صندوق ذاكرة محشو بالكراريس الكئيبة
قال فتحي: مها زوجتي هي مجرى حياتي وهي منطلق بؤسي في ذات الوقت.
وهي إن فرحت، وقلما فعلت تسعدني، وعندما تغضب وطالما كانت كذلك تحول الطعام في فمي والماء معًا الى طعم واحد هو طعم المرار الذي هو أمرّ من الدواء في فم الطفل.
تنهد قليلا وصب لنا كوبين من الشاي وأكمل:
ولأنها ملاكي وشيطاني! كانت في معظم أوقاتها تستمتع بإشاعة جو من الغضب والقلق والتوثب والتحفز، ولربما كما قد أكون ذكرت لك سابقا فهي تجد نفسها هنا مع مشاعرها الأولية ومع الغضب الذي قد يُسبغ عليها أهمية فتصبح قِبلة بيتها والجيران والحارة التحتا
-يعني أنتم تقطنون الحارة الفوقا؟
-نعم، وماذا في ذلك؟
-لاشيء، أنا أعلق على قولك أن تاثيرها يمتد للحارة التحتا
-نعم، وعلى ما يبدو أن الغضب عندها مربوط بالصراخ والمشاكسة لدواعي السيطرة أصبح الجزء الأكبر من حياتها...وبالطبع حياتي.

اعتدل في جلسته ثم واصل قائلًا: وفي الأيام التي غبت فيها كانت زوجتي قد اشتبكت مع سيدة من الحارة التحتا

-ياساتر!

-فعلا يا ساتر، فالمرأة جاءت إلينا وطرقت الباب وسألت عن ابراهيم

-سألت عنك؟

-لا ياسيدي. لا تتعجل وتفعل مثل زوجتي!

ضحكت وتركته يُكمل

أكمل: هي سألت عن شخص اسمه ابراهيم، ولما كانت المرأة شابة وجميلة فلقد أثارت الغيرة والشكوك الفارغة لدى مها، فقالت لها وكيف تعرفين إبراهيم؟ قالت لها المرأة هو زوجي، وقالوا لي أنه دخل هذا البيت فجئت اسأل عنه لأنه تأخر عليّ.

كان فتحي يتكلم كعادته بين الساخر على حاله، وبين المتألم فتابع: وبالطبع من يستطيع ان يقنع زوجتي أن المرأة الجميلة تسأل عن غيري!

ولك أن تتخيل ما حصل للمرأة المسكينة من جروح وكسور وأضرار ومستشفى وعمليات وجاهات عشائرية حتى فهمت زوجتي الأمر أن ابراهيم المرأة هو غيري، وبالطبع ما اقنعها هو حضورهذا الإبراهيم الآخر للمستشفى فقط، وحيث أوضح أنه كان عند جيراننا، ولما سمع الصراخ هبّ والجيران لاستجلاء الموقف، ولم يعلم أن المشاجرة كانت مع زوجته إلا من اتصال وصله من المستشفى لاحقًا.

أيام متقطعة اضطررت فيها أن اعتذر للمرأة، ولزوجها وللجيران، ولسائق سيارة الاسعاف الذي شتمته زوجتي بلا سبب ولثلاثة ممرضين وعدد من الاطباء الذين ظنتهم يشتمونها أو يلسنون عليها، ولم توفر مجموعة من المارة الذين تلقوا نصيبهم من الصراخ والشتائم.
-هذه ثور هائج... ثم ندمت على كلمتي فهي زوجته، ويا ليتني ما علقت
فطن فتحي لحرجي وندمي ونظر لي مبتسمًا ثم قال: بل أكثر.

جنة الاقتراب

لمجرد أن اخفف عن فتحي أرسلت له هذه القصيدة لعل فيها ما يطمئنه نفسيا في رغبة الاقتراب كثيرٌ من التغاضي، وكثيرٌ من الرفعة والنسيان، وأشباح فضيّة لافتراقاتٍ وفتور وأحزان قاتلة ستتوارى لتكون من محطات الماضي.
في رغبة الاقتراب دفقاتٌ من التسامح والأمل، ودفقات من التصالح مع الذات ونبوغ الهمّة، وقدرة متكاثرة على قهر الألم ونزع قرون الأكباش المعلقة في رقاب المسهدين، وفيها التمسك بأطواق النجاة حيث تطل
بالايمان
والرضا
والنقاء
راقصةً في حفل الفرح الكبير.

في التقارب راحة المطمئن، وثقة المؤمن وتيار هواء بارد في قيظ يوم اشتق من الجحيم.
في التقارب ابتعاد عما يُغضِب ويثير ويُلهِب، وعما يراكم الغبار، وعما يمحو الصفاء
والبهاء
والابتسامة
التي تضيء أركان المكان وتنثر العبير من شقوقٍ في ظلمة النفور، فتصيب قلب الأليف والحزين والمنصت والراجي من الله الخير الكثير.
في الاقتراب مدرسةٌ تفهمُ معنى النظر، فلا يكون من يجاورها -وإن خالفهاالرأي- غائبا عن المدى، وفي الاقتراب اعتراف تكلّله تيجان الحُب، وسيوف الفتك بالمسافات التي تقترب حتى تكون جوار القلب أو في سويدائه.
في الاقتراب رفضٌ للشك، وللصمت الرهيب، ورفض للتوجس، وعدم قبول إدارة الظهر، ورفض للعتمة والنشيج والسوداوية والنعيب والنحيب وخيبات النفس المتحولة قنابل موقوتة تفجر الهدوء والصفاء واللطافة والحلاوة والسخاء.
في الاقتراب اعتراف بالأخر، وتقبل للآخر من حيث هو، وفي التقبل اقرار بالتجاور.
شكلت الطيور السابحة في فضاء عقله والروح
مشيَته،
و لغة عينيه،

ورحيق شفتيه،
وارتجاف يديه حين يشير لها،
وقررت نوع العطر الذي يتدفق منه حين يضحك
أو يسأل
أو حين تتأجج روحه بالتفاؤل
والرضا
والحنين.

في الاقتراب بهجة الراضين الذين لا يغلقون صندوقا، ولا يتلهون بالنظر لما فوق الأكتاف، أو عند حدود أصابع القدمين،أو للبحث عن أجوبة لأسئلة مفترضة في غيبوبة المشاعر.

في الاقتراب مطلبٌ محق، وسعي جليل، ونعمةُ الجلساء حين تتقابل الأرادات باقتراب مقابل نظيره، فلا تتنافر الأرادات حتى لو كان الخلّ أشعث أغبر، أو من مرتادي مقاهي العابثين.

جنة المتقاربين في الاحتضان للذات والفكرة والرؤية على اتساع الزوايا من المتآلفين، وفي الجنة ما لاعين رأت ولا أذن سمعت ولاخطر على قلب بشر.

المجموعة الثالثة:

كتاب الثورة الخفيّ!

في حضرة الحضور

كل لقاء معه قد يكون مناسبة للدرس، وكل لقاء معه قد يكون مناسبة للاكتساب، والأمر أنك بحضرته تكون مأسورا للجوّ، والشخص والهالة التي تحيط به، وكما المريدين في حضرة الوليّ تحس بمشاعر قلّما تشعرها مع غيره.

حينما تراه تتبدل الفصول فجأة من النقيض الى النقيض، وتتبادل الطيور التحيات من على الفنن، وتكتسي الأرض بهاءها، وتلوذ أنت بأقرب عمود لتتكئ عليه، كي لا تسقط.

في حضرة الحضور تكون أنت بالكاد ظاهرًا، وفي حضرة الضوء لا تكاد فتات الظلمة تبرز إلا بين ثنايا الأسنان ورمشات أجفان العيون القليلة.

أنت في حضرة الربيع لا تفكر بالثلوج، وإنما بالرياحين وحلو الأنفاس، وجميل الأزهار البرية، والرقبة المرمرية لصبية فاتنة، تخطر في ممر الدروب الموصلة بين خطواتها وروحك التعِبة.

في الربيع، أنت محصن ضد الشتاء والصيف معا، فلا يجرؤ أي منهما على الاقتراب منك! لأن الربيع مستبدّ بك، كما الحال مع ضوء النهار، وفتنة النساء، ومزيج الحبّ المشرّب بالضجيج في يوم لم يكن لك في ليلته إلا كثير من الأرق.

في كل لقاء معه، أي كان الشخص من الروّاد الأوائل، حالة حبّ أصيلة.

وفي كل لقاء مع المارّين على أرواحنا كنسمة صيف جليلة

حالة عشق لا تحتمل الجزع، وفي كل صحبة تظفر بها معهم أنسُ فريد، وولعُ بالأثر أكيد.

هو-مندفعًا:عن ماذا تتكلم يا رجل؟ وأراك تلجأ للفلسفة والأدب في خليط لم أعد أتبين منه المغزى!

أنا:أتكلم عن أبيك؟

هو:أبي! ومن أين لك أن عرفته هكذا؟

أنا: أنه أبي، كما هو أباك؟

هو-متعجبًا:بدأنا بالألغاز ولعبة الأحاجي!

أنا:لا، أبدا. بل نظرية التأثير

هو، مبتسما: نعم. أظنني فهمتك؟ وأنت تتحدث عن المؤثرين فيّ وفيك من قادتنا الكبار.

أنا: أرأيت لم يكن فيما قلته أي أحجية.

هو: نعم، ولكنه فلسفة مغموسة بماء الأدب

أنا-ضاحكًا:هذه فلسفة الآن!

هو: منكم نتعلم، عموما عن ماذا تتكلم؟

أتكلم عن...

هو مقاطعا: برجاء أن تدخل بالموضوع مباشرة دون اسهاب.

أنا: لك ذلك. التقيته في عدة حالات منها حقيقية ومنها في الحلم ومنها في فضاءات الفكر الواسع وحلقات الذكر الروحاني.

كان يتأهب للنوم ودفعني أحد الاخوة للدخول عليه، وأنا بين الرفض والقبول فكيف أدخل عليه وهو يتأهب للنوم؟

قال لي: هو لا ينام إلا بعد أن أوافيه بالتقرير.

أنا: هذا أنت فكيف بي أنا؟
قال لي: هذه الفرصة المتاحة لك لتكلمه، وقد لا نجد لديه وقتا أفضل لنعرض عليه هذا الأمر؟
أنا: أي أمر؟
قال لي: أمر انضمامك لقيادة قوات ال١٧ قوات أمن الرئاسة؟
أنا: أخ أبوياسر، أنت عرضته عليّ، وأنا لم أرى أنني قادرٌ علي تحمل هذه المسؤولية.
قال لي: بل لديك، وأنت لها فلا تتراجع
هو: هل هذا هو ما طلبته منك أن تباشر الدخول في صلب الموضوع!
أنا: هذا صلب الموضوع، ولا يمكن أن ندخل فيه إلا هكذا فلا تقاطعني ودعني اتحدث بطريقتي.
هو-متأففًا: تفضل!
أنا: أبوياسر، هو أبوالطيب قائد قوات ال١٧ قوات أمن الرئاسة، لا تقل لي ما فهمت!
هو: بدأت أفهم.
أنا: كنت في تلك الأيام طالبًا بالسنة الثالثة في كلية الهندسة، ورئيسًا لاتحاد الطلاب، وكان هذا اللقاء بالنسبة لي هو الأول مع أبوياسر، فما بالك في حضرة الفصول المتبدلة في شخص واحد!
هو-متفكرًا: أظنني فهمت.
أنا: سأكمل، وكنت أعاني من ضغوطات يعانيها كل من يخلط

بين السياسة والعمل النقابي والدراسة فيتوه الكتاب بين أجنحة المهرجانات والنشرات التوعوية وبين حفلات الطلبة وتقديم الخدمات لهم.

هو: هذا ما عانينا منه جميعا، مرحلة الطلاب، وكان الألمعي الذي يستطيع أن يوفق بين دراسته وعمله النقابي بالطلاب. وبالمناسبة كان لي صديق بالجامعة أدمن معيشة الطلبة حتى تجاوز سن الثلاثين وهو يفترض أنه يناضل أكثر من ١٤ عامًا وهو في دراسته الجامعية التي من المفترض أنها تستغرق أربع سنوات. لقد كان محمد الذي أسميناه أبوطافش يمثل بالنسبة لكل مستجد بالجامعة بمثابة الأب والدليل والمرجعية لكل تفاصيل البلد، عدا عن قدرته العجيبة في استقطاب الشباب للثورة الفلسطينية من خلال تصرفين شائعين هما كوب الشاي، وقلاية البندورة! وبالطبع من خلال حديثه الغني ووجهه الصبوح.

أنا: نعم، سمعت به!

هو-مكملاً غير عابىء بالمقاطعة: وعندما جاء في أحد الأيام الأخ أبو إياد (صلاح خلف) إلى البلد بزيارة سرية فلم يكن في استقباله إلا الرسميين في البلد وأبوطافش الذي سبقته شهرته، وكان صلاح خلف رجل زمن من الطراز الأول فعرف أن من بين مستقبلِيه الرسميين، وممثلي جهاز الأمن الموحد يوجد شخص ليس منهم، فلقد كان صلاح خلف يدقق في كل من يقابله أو ينتمي للجهاز.

ورغم سرعة الحركة في المطار وصالة الشرف التي فُتِحت لأبي إياد إلا أنه لمح أبوطافش بطرف عينه، فاقترب من أبرز مساعديه ليسأل عنه وهو مازال يسير في موكبه مسرعًا فنظر مساعده إليه فعرفه! انه الشخص الوحيد في البلد الذي لا تخفى عليه خافية وكأنه يقوم بدور السفير،حتى في الأمور السرية، الذي لم يكن متواجدا أصلًا لعدم علمه!

أبوإياد-متوقفا: أبوطافش مين؟

همس مساعده بأذنه شارحًا له خلفية بسيطة عنه في ثوانٍ معدودة حتى ابتسم أبوإياد وأشار له بيده أن اقترب!

أبوإياد: كيف حالك يا أبوطافش؟

أبوطافش: الحمد لله يا أخ أبوإياد

أبوإياد: كيف عرفت بمقدمي، ونحن لم نبلغ حتى السفير

أبوطافش: لي علاقاتي يا أخ أبوأياد

أبوإياد: طيب، غدًا نفطر عندك قلاية بندورة!

أبوطافش: حاضر يا أخ أبوأياد

وكان الوفد قد وصل السيارات ودخلوا في السيارات السوداء المعتمة بسرعة وقف عندها أبوطافش مبهوتا.

المهم أن الوفد نتيجة معرفة أبوطافش بوصوله كان قد غيّر من مقر إقامة أبوإياد لأن أمن البلد لم يعجبه الأمر.

أبوإياد لم ينسى أبوطافش ولم ينسى وعده رغم تغير الموعد للدواعي الأمنية.

تفاجأ أبوطافش بوصول ثلاثة رجال أمن قرعوا باب شقته

وفتشوها فخاف على نفسه وتوجس شرًا، ليتفاجأ بضجيج أبواب السيارات السوداء تصل مع مجموعة من الرجال يتوسطهم رجل عفيّ، يتحرك بسرعة كبيرة لم يعتد عليها ويجتهد مرافقوه للحاق به، وبغمضة عين وهو ينظر لرجال الأمن في شقته والباب، فإذ بصلاح خلف شخصيًا في حضرة أبوطافش .

طلب أبوإياد من رجال الامن والمرافقين الخروج، وجلس على حافة سرير أبوطافش وطلب منه «قلاية بندورة»!

وكانت العدّة متوفرة دوما عند الرجل فلم تستغرق القلاية بضعة دقائق الا وهي جاهزة، وتكلم معه أبوإياد، ورغم علمه بسنواته الطويلة بالجامعة وعدم تخرجه لم يؤنبه ولم يزجره، بل سأله عن شؤون البلد والطلبة وعلاقاته وهو يعدّ طبخة «قلاية البندورة» الشعبية البسيطة، التي تقاسمها معه.

كان أبوطافش يرجف من الرهبة والخوف الممزوج بالفرح،وبعد أن أتم طعامه، وقبل أن يودعه أبوإياد قال له: سأراك متخرجًا بأقصى حد... العام القادم.

خرج أبوإياد كما دخل كنسمة هواء لا تعرف من أين دخلت وأين استقرت، وكان هذا اللقاء بداية انقلاب حياة «أبوطافش» الذي اعتبر كلام أبوإياد أمرًا تنظيميًا، فأغلق المطعم والمقهى المفتوح في بيته، والتزم التزاما مطلقا بما قاله «أبو إياد» وتخرج.

أنا: وبعد التخرج، ماذا حصل؟

هو: بعد أن علم أبوإياد بتخرجه أرسل له مبلغًا من المال هدية، أو حلوان كما يقولون وأصبح من أقرب المقربين له في ذاك البلد.

أنا:قصة مهمة تدلّل على عمق الالتزام الذي كان لنا بأولئك الروّاد الأوائل الذين كانوا قدوة وأسوة لنا.

هو: نعم، وذكرت قصته مقاطعًا قبل أن أنساها، فاعذرني!

أنا: لقد استمعت لك رغم المقاطعة، فاستمع لي.

هو: كلي آذان صاغية.

أنا:أين وصلنا؟

هو: كنت ستدخل مع الأخ أبوالطيب عند أبوعمار وهو يتأهب للنوم!

أنا فرِحًا: أراك قد عرفته؟

هو: ومن يكون مسؤولًا عن أبي الطيب غير أبوعمار مباشرة، أكمل.

أنا: بعد تردد طويل مني، فاجأني أبوالطيب بأن فتح الباب، فإذ أنا بمواجهة رجل قصير، متين البناء، بلباس النوم، حاسر الرأس مبتسم المحيا! كثعلب متأهب... نظر الى أبوالطيب وأشار له أن أدخل: وسأله عني هامسًا ولكني سمعته فالمسافة غير بعيدة: من هذا؟

فقال له: هذا عبدالحكيم الطلياني رئيس اتحاد الطلاب هنا، وأنت كنت قد وافقت على التجديد في قيادة أمن الرئاسة، وهذا أولهم وقد أحضرته لك لتقابله.

كانا يتهامسان ولكني كنت أسمع ما يقولان، وكأن أبوعمار قال له افعل ما تراه مناسبا فلك كامل الصلاحية والشباب هم المستقبل، ورحب بي وقال لي تفضل!

أين أتفضل؟ فلا يوجد في الغرفة الصغيرة الا سرير النوم! والرجل الأصلع المهيب أمامي أذهلني؟ فلم أرى الهيلمان والقوة والعنفوان بقدر ما رأيت ابتسامة الأب الحاني ودعوة ممزوجه بالقبول.

كان هذا الموقف بالنسبة لي أشد وطأة من موقف أبوطافش مع أبوإياد فكيف لمثلي أن يقابل ابوعمار منفردًا!

ومع القائد أبوالطيب؟

لقد كنت في قمة الاضطراب بين مشاعر الاعجاب والانبهار من جهة، وبين التردّد في قبول المطلوب من أبي الطيب، وخشيت أن يقوم أبوعمار بإلزامي بما طلبه مني أبوالطيب.

أبوعمار مبتسمًا: تعال يا طلياني.

....

أبوعمار: ماذا تدرس؟

أنا: هندسة الكترونية

أبوعمار: لها المستقبل.

أنا:.....

أبوعمار: كيف دراستك؟

أنا: نص نص و....

أبوعمار: أنا عايزك تتخرج بامتياز!

لقد كان هذا الطلب بنفس صعوبة أن أكون بقيادة قوات أمن الرئاسة، ولكني حمدت الله أن الأخ أبوعمار لم يحدثني، أو يأمرني، بأن أكون في قيادة الجهاز الذي يشرف عليه مباشرة.

شدّ أبوعمار على يدي، وقال: عايزك متفوق.

خرجت، لا أدري كيف خرجت وكيف دخلت!

وحينها قال لي أبو الطيب: لقد أنقذك أبوعمار فلم يُلزمك بما طلبته منك، بمعنى أنه جعل لك الخيار.

تنفستُ الصعداء.

كتابٌ مهما كان الثمن!

في تونس حيث مقر القيادة الفلسطينية، يجب أن يتم وضع اسمك مسبقًا في مطار قرطاج تونس وإلا لن تتمكن من الدخول حيث إن الموافقة من سفارة فلسطين تعد شرطًا مسبقا لموافقة الأمن التونسي.
تصل الى المطار وتتجه الى مسرب خاص بالفلسطينيين مهما كان جواز سفرهم وبعد التيقن من الموافقات الأمنية يتم طباعة الاقامة او التأشيرة المؤقتة على جواز السفر.
غالب الزوار من الفلسطينيين الى تونس يستقبلهم أحد الأجهزة التابعة للمنظمة أو لحركة فتح أو لأحد الفصائل ويتم استقبالهم في واحدة من المضافات العديدة المنتشرة في العاصمة التونسية.
المضافات التابعة للمنظمة وللرئاسة الفلسطينية منتشرة في كل مكان وغالبا ما كنت أحل ضيفا على احداها بصفتي رئيس اتحاد الطلاب في الفرع، ولكن هذه المرة كانت الدعوة لحضور احد اجتماعات المجلس الأداري للاتحاد العام لطلبة فلسطين فكان نزل ابن خلدون هو النزل الذي جاورت فيه الاخوة من أعضاء المجلس الإداري في الاجتماعات التي كانت تستمر ليومين أو ثلاثة ونزور فيها القيادات الفلسطينية ونتحاور مع زملائنا من كافة الفصائل.
يومها اتصل بالمضافة أحد الأخوة من قيادة قوات ال١٧

يسأل عني، ولما كنت في اجتماعات المجلس الإداري، ولم يبلغني أحد من المضافة قدم الأخ المكلف ليطلبني من داخل الاجتماع فنظر لي كل من بالاجتماع بين باسم وفاغر فاه!

كانت العلاقة مع الأجهزة الأمنية يشوبها الحذر،خاصة بالنسبة لنا كطلاب، لا سيما وأن النقابات والاتحادات والمؤسسات المختلفة تتقاطع فيها وتتشابك العلاقات التنظيمية مع السياسية بين مختلف الفئات، بين الجماعة المنتمية لهذا القائد أو ذاك، فهؤلاء من جماعة أبوالعباس، وهؤلاء من جماعة جورج حبش أو عبدالرحيم ملوح، وأولئك من جماعة أبوإياد أو أبوالهول أو أبوالطيب في حركة فتح.

صدمت من الطلب فلم أكن أتوقع ان يطلبني جهاز أمن الرئاسة، وأنا أصلا لست منتمٍ له! فأنا من جماعة التنظيم أي جماعة أبوماهر غنيم كما كانوا ينعتوننا!

والعلاقة المباشرة مع الجهاز الأمني دون علم رأس الجماعة، مدعاة للقلق والشكوك والتجنب!

نظرت حولي محاولا التأكد زن لا أحد زخر بنفس الاسم، فلم يكن غيري فأنا عبدالحكيم الطلياني ولا أحد غيري!

خرجت من قاعة الاجتمعات وكل الأعين مركزة علي فكيف لهذا الغر حديث السن زن يكون مرتبطً بأحد أهم الأجهزة بالثورة الفلسطينية والتابع مباشرة للرئيس أبوعمار!

أنت عبدالحكيم؟

نعم.

الأخ أبوالطيب يريد لقاءك اليوم؟

احترت ولم أرد، فلم أكن أعلم بأني لي موعد مسبق معه! ولم أكن قادما الى تونس الا لاجتماع المجلس الأداري لاتحاد الطلاب فمالي أنا وأبي الطيب؟ كانت هذه الأفكار تراودني وظننتها لحظات ثقيلة كما ظنّها ممثل الجهاز الذي كان مستعجلا كما بدا لي، ولما لم أجبه.

قال: سنمر عليك الساعة الثانية صباحا، لنأخذك الى الأخ أبوالطيب!

ثم أسرع بالنزول... دون أن يسأل عن عنوان المضافة أصلا، وأظنه لا يحتاج ذلك! ودون أن ينتظر موافقتي من عدمها، ولم تكن صدمتي من الأسلوب بمقدار الموعد المحدد وهو قريب الفجر!

عدتُ للاجتماع لتختلف النظرة التي كان المجتمعون ينظرون بها لي من الاستصغار والاهمال الى نظرة الاعجاب، أو نظرات الغيرة من البعض، فالعلاقة مع جهاز ال١٧ في حدها الأدنى صلاحيات، وقرب من الرئيس أبوعمار، أضافة لامتيازات أخرى!

بين تونس العاصمة في المنزه السابع الى حي قرطاج مسافة طويلة قد تأخذ بالأحوال العادية ٢٥ دقيقة ولكن في حالتنا هذه قطعتها السيارة التي ركبتها بفترة زمنية قصيرة جدا لم تتجاوز الدقائق السبعة! ربما لأن الوقت بعد منتصف الليل وقريب الفجر، وللسرعة الجنونية التي كان يسوق بها سائق

السيارة وكأننا في سباق سيارات! والميدان شبه خال!
في مقر قوات أمن الرئاسة في قرطاج دخلت بالموعد المحدد، وجلست في أحد الأركان وتدور في رأسي عديد التساؤلات والأفكار المتراكبة حول السبب والغاية، ومر بي الوقت بين المشاريب المعتادة المتنقلة بين القهوة السوداء وبين الشاي أو «التاي» التونسي الأخضر اللطيف.
خرائط عديدة معلقة في صدر الغرفة، وأبواب تفتح وتغلق، وأصوات سيارات قادمة وسيارات مغادرة وأصوات صاخبة عرفت لاحقًا انها من مميزات أفراد قوات ال١٧ الذين كانوا يتمتعون بالثقة والجسارة الى حد التهور أحيانا، وأحيانا ماكان فيهم الزعران والأشقياء -كما رأى ذلك البعض- لأنهم كانوا ينفذون المهمة دون سؤال وينفذوها بحذافيرها.
في الساعة الثالثة صباحا دخل الأخ أبوالطيب بوجهه البشوش، وأسلوبه الودود وكأن لكل شخص من إسمه نصيب، وسلم عليّ، وسأل عن الأقامة في تونس هل هي مريحة أم لا؟ كما سأل عن المتطلبات المالية فحمدت الله.
من ابتسامته وحديثه أدركت أنه لربما سيعود ويفاتحني في أمر الانضمام للجهاز, وكنت خائفا من ذلك ومن الرفض فأنا الأن في قبضته!
ولكن لحسن الحظ أن الكلام اتخذ منحى أخر وهو المنحى الثقافي الذي استنكرته في البداية ظانًا أنه تمهيد أو (جرة رجل) كما يقولون.

طلب مني مجموعة من الكتب، أبرزها ثلاثة شدد عليها كثيرا، وقال لي أنه سيرسل المبلغ لممثله في البلد التي أقيم بها فلا تقلق من الثمن مكررا مهما كان الثمن.
خرجت من الاجتماع مرتاحا وكأن جبلا من الضيق قد أزيح عن صدري فالمهمة سهلة وأنا لها.

في معسكر العدرا في سوريا

كانت البداية من حيث كنّا ستة من الشباب في عز النضوج والعنفوان الذي يخجل منه شموخ الجبال، وتصبح الهضاب عتبته نحو الصعود فلا يحدهم شيء ولا يقف أمامهم حواجز.
في معسكر العدرا في سوريا قدمنا في رحلة واحدة متجهين الى لبنان لأن الممر الإلزامي هو عبر الشام.
كانت دمشق هي القبلة، وكان المعسكر يمثل محطة الصعود نحو الجبل.
في عنفوان الشباب وحماسة ما بين الأهداب الأهداب لرؤية القادم على عجل، نطل من شرفة الواقع على مصيرنا الذي نقبض عليه بأيدينا .
نقفل عليه العيون لأننا نراهُ ونحسّه ونمسكه.
وحين يملؤنا الأمل والثقة، وترصف دروبنا بحجارة الإقدام، نكون نحن الستة معا في معسكر العدرا للفدائيين بالشام.
عندما حطّت بنا الطائرة في مطار دمشق كنا نمتلك القليل من الأمتعة،فالهدف هو ليس نزهة وإنما صعود الجبل أي الالتحاق بالثورة الفلسطينية للتعايش.
قمنا باسقاط فصل كامل من سنواتنا الدراسية، وقررنا التضحية بالدراسة لغرض الالتحاق بمن هم أعزّ منّا وأصلب أي بالفدائيين رجال الجبل وفتية التلال والقوارب المطاطية والقوارب الشراعية.

لم يستقبلنا أحد في المطار!
بل كانت دمشق تفتح ذراعيها للمراهقين القادمين من الخليج العربي حاملين مهم كثير من الأمنيات وقليل من السلبيات التي لا تكاد تذكر.
المسافة بين المطار والفندق الذي نزلنا فيه لم تكن محسوسة، فلم نعلم أهي طويلة أم قصيرة؟ وذلك لأن حجم الإثارة طغى على ضعف الإدراك للمسافات والوقت.
في الفندق المتواضع الذي لم نختره أبدا، وإنما سائق سيارة الأجرة، دخلنا نجر أنفسنا مع الحقائب لنعيش الليلة الكابوس في غرفة واحدة.
الغرفة القذرة التي استقرينا فيها لفندق جد متواضع وسط دمشق، وفي قرّ شديد لم نستطع فيها أن ننام ليلتنا التي قضيناها بين سخرية وطرائف وبعض الاغفاءات الى أن أطل الصباح بعينيه المغمضتين.
وبعد البحث بين أوراقنا عثرنا على رقم الهاتف للشخص الذي كان من المتوجب حضوره للمطار، ولم يفعل!
اتصلنا به، فردت زوجته أنه قد ذهب الى حلب في مهمة عاجلة!
وقعنا في حالة من التخبط!
لم نعلم معها ماذا نفعل؟ بين فكرة سرية المهمة وعلنية مكاتب المنظمة في دمشق وبين حماس الشباب والثقة الطاغية!
إننا في بلد الثورة، قررنا أن نستقل سيارتي أجرة لنتجه لأي مكتب من مكاتب حركة فتح.

في مكتب فتح

سيارتا الأجرة وضعتانا على مقربة من مكتب حركة فتح في دمشق ولما استعلمنا عن أبوالفدا وهو الشخص المكلف باستقبالنا.
ذكروا أنه بمهمة خارجية، وما كان منهم ذكر النوع أو المكان.
فهمنا واحترمنا نطاق السرية، وإن لم نفهم ألا يوجد من يسدّ محله؟ فيقوم باستقبالنا في المطار.
دلفنا لداخل المكتب فاستقبلنا أحد القيادات وأجلسنا بإشارة من يده.
طلب لنا مشروب الزعتر، وكانت المرة الأولى لنا التي نشرب فيها غير الشاي والقهوة كمشروب ساخن فتعجبنا!
جلسنا في الغرفة التي ترامت فيها 10 كراسي تقريبا، وكان المسؤول أو القائد الجالس وراء مكتبه يرحب بنا دون أن يرفع ناظريه عن كتاب ضخم بين يديه.
أكبرت أنا هذه الميزة، أي ميزة الاستغراق بالقراءة.
رغم انشغاله بها عنّا، الا أنها من علامات المثقفين وهم في الثورة الفلسطينية حسب علمي قلائل لسبب انشغال الثورة بالعمل السياسي والعمل الميداني الذي هو على حساب بناء الشخصية أو ما يسمى التنمية البشرية.
قلقنا كثيرا إذ كان المسؤول يقرأ من الكتاب ويهمس بالهاتف

ببضع كلمات بصوت خفيض، الا أنه من الواضح قد أشكل عليه شيء، فأبقى الخط الهاتفي مفتوحًا وتوجّه بناظريه لنا، ثم قال:

-من منكم يعرف اللغة الإنجليزية جيدا؟

كنا نحن الستة القادمين من الجامعة متعددي التخصصات، ولكن بالحقيقة رغم أن دراستنا باللغة الانجليزية ترددنا ونظرنا لبعضنا البعض!

رفعت يدي فانفرجت أساريره، ونظر باتجاهي ومازالت سماعة الهاتف بيده.

قال لي: ما أسمك؟

قلت له: جهاد.

قال لي: هل تعرف معنى كلمة علمانية بالانجليزية؟

بهتُّ من السؤال فأنا لا أعرف معنى الكلمة بالعربية أصلا.

نظرت بوجوه زملائي الذين تحاشوا نظراتي جميعا، وماهي هذه العلمانية أصلا؟

لم أنطق حرفا.

فكأنه فهم، فوضع السماعة علي إذنه.

وقال: أنا يا ابنتي من ساعتين أبحث لك في القاموس العربي الانجليزي بين يدي عن معنى الكلمة بالانجليزية فلم اجدها! وسألت مجموعة من طلبة الجامعة عندي بالمكتب فلم يعرفوها، دعيني حتى المساء عندما ياتي أبوالعواصف لربما عنده الحل! أو سأطلب منه جلب قاموس أحدث من هذا.

أقفل السماعة

-ماذا جاء بكم من الخليج؟

-جئنا لأخذ دورة بالشام لنذهب للتعبئة الطلابية التي دعى لها الاتحاد العام لطلبة فلسطين في لبنان

-آه نعم، ألم يكن الأجدر أن تمرّوا على معسكر التدريب؟

-يفترض ذلك، ولكن لم نجد أحدا في المطار، ولأول مرة ندخل دمشق فلا نعرف العناوين وكان هنا الأسهل.

-أين مسؤول استقبال الطلاب؟ صاح بصوت جهوري.

فأقبل أحدهم يطلّ عليه من الباب المفتوح فقال له: إنه في مهمة خارجية.

-ولماذا لم يكلف أحدا باستقبال هؤلاء الطلاب؟

-لا أعرف.

-طيب، تفضل خذهم معك على معسكر العدرا

في الطريق للمعسكر

ركبنا نحن الستة في خلفية السيارة العسكرية وسرنا في شوارع دمشق الجميلة تلك التي تشم فيها رائحة العراقة ونضارة العصائر المنتشرة على العربات والجميلات الدمشقيات لا تكاد ترفع نظرك عن إحداهن إلا ووجدت النداء يتكرر مع كل غيداء.

فالجمال الشامي لا تستطيع الا أن تلحظه وتعجب به وتفور معك منابع العاطفة فتمتليء بالدفء والرغبة والاثارة.

كنا في الإطلالة من شبابيك السيارة العسكرية لا نكاد نفقه معنى الجمال إلا قليلا، فمن تنقل لأنوفنا بين روائح عطريات الأزهار المنتشرة في الحدائق والشرفات إلى تلك التي تتحدى رائحة الشم لدينا مما توفرعلى عربات الباعة المتجولين، انتقالا لروائح الطعام التي تكاد تجعلك تقفز من مكانك كنا نهيم ونذوب.

المهم أننا قطعنا الشوارع بين الميادين باتجاه غوطة (بساتين) دمشق الغنّاء بأشجارها وثمارها وصولا لمعسكر العدرا الشهير.

كنا نجلس متراصين، فالسيارة لا تتسع لستة أشخاص بل هي تضيق بأربعة فكيف بنا نحن وفينا من ثقل وزنه وخف ذهنه فأصبح منفوخا منفوشا لم نضطر لاستيعابه بقدر ما كنا نطفر بالسعادة.

الشخص الذي كلفه القائد -صاحب قاموس العلمانية في مكتب فتح- ليقلنا الى المعسكر كان قد أشار لسيارة الأجرة لتقلنا تاركا أمر الدفع لنا وانسحب لاشغاله الهامة!

لم يربك المشهد الجميل إلا منظر الجنود السوريين المدججين بالسلاح على أحد التقاطعات، وقد التموا على شاب في مقتبل العمر يشتمونه بكلمات تعنيف بغيضة، ويضربونه بأعقاب البنادق! وكانه قتل والد أحدهم؟

تجرأت أنا فتكلمت

وقلت للسائق بهبل: لم يضربونه بهذه القسوة ولم الشتائم القذرة؟

اخفض من صوتك

لقد أصبحوا خلفنا

للحيطان آذان

لا حيطان هنا إلا حوائط السيارة

عمّ الصمت السيارة ولم أفهم من المعاني شيئا؟

فكيف يتناسب منظر الجميلات المتبختررات، والروائح الفواحة وأصوات الباعة الجائلين والدكاكين المتراصة تعرض ما لذ وطاب، ومنظر الفتك بشاب وبشكل لا إنساني؟

لم أفهم سخرية المشهد إلا متاخرا أي بعد سنوات طويلة.

نظرت لاصدقائي في السيارة ما بين مبتسم ومهموم، وما بين منفرج الشفاه عن كلمات لم تخرج ورغبات دفينة بالقفز....

أنها ميعة الصبا والشباب

رغم بشاعة المشهد الذي لوث أبصارنا وأسماعنا، وقطع من أرواحنا تسلسل مشاهد الجمال الدمشقي، وسلاسة السعادة وانسيابها بين خلايانا جميعا كما ظننت الا اننا مازلنا في قمة التوثب فنحن في مهمة وطنية.

في داخل المعسكر

كان الجو باردًا جدا الى الدرجة التي لم نعتدها في الخليج العربي، وكان المعسكر قد أُعِد على عجل، فجهزوا لنا خيمة كبيرة مع مجموعة كبيرة من الحرامات والفرشات.
حمل كل واحد منا 6 بطانيات وفرشة ومخدة ولباس عسكري وملابس داخلية، ودلفنا معا الى الخيمة التي لم تضم غيرنا وثلاثة من المدربين كانوا ينامون في الخيمة المجاورة بحيث تركونا نحن الستة معا.
من الواضح أننا جئنا في فترة عدم اشغال للمعسكر أو فترة إجازة، او حرب!
لم يكن بالمعسكر إلا نحن والمدربون الثلاثة، والذي اتضح أن احدهم ليس مدربا بل هو الطباخ والذي يقوم أيضا بغسل ملابسنا
مضامين الدورة أيضا وعلى ما يبدوأعدت لنا علي عجل.
مجموعة من الدروس النظرية عن الإنتماء وعن التنظيم ومفاهيم الوطنية ومعني حرب الشعب، ولم هي طويلة النفس، وعن المركزية الديمقراطية ومحاضرات عن الطليعية والجماهيرية وأخرى عن أخلاق وقيم التعامل مع الجماهير.

وفي النبذة التي تعرضت لانطلاقة الثورة عرفنا أسماء جديدة غير تلك التي كانت تتردد في الإذاعات والصحف ونشرات الأخبار لنكتشف أن هناك من هم غير أبوعمار وأبوجهاد وأبواياد الثلاثي الذي ظننا ان الثورة تركبت منهم فقط!
لم نبتعد كثيرا عن النشاط العملي فالتدريب على الأسلحة الخفيفة وعلى رأسها الكلاشينكوف كان في كل دورات الثورة باعتبار أن هذا السلاح الروسي احتل لدى ثوار العالم في كوبا والجزائر وفيتنام وكوريا الشمالية احتل موقعا متميزا إذ ارتبط الكلاشنكوف بالثورة والمعارضة وارتبط بحروب التحرر قبل أن يحمله الارهابيون في زمن امتهان الكلاشينكوف.
المهم ان العاطفة الحميمة كانت تربط بين الفدائي و«الكلاشينكوف» يتدرب على استخدامه بخفة ومهارة وسرعة ودقة وهي كلها من متطلبات الاعداد الميداني.
وكان الكلاشينكوف رفيقا لبدلة الكاكي، ولا يتخلى عنه المقاتل حتى في منامه فكان إما تحت المخدة أو متمددا الى جانب المقاتل، بل ان الارتباط بقطعة السلاح قد جعل من ذات القطعة تحمل اسما مميزا يستطيع كل شخص أن يميز بندقيته عن غيرها بالصوت والشكل وطريقة الاستجابة وكيفية الاحتضان.
لقد اصبح الكلاشينكوف ميزة وسمة لكل مقاتلي الحرية وارتبط بهم، بحيث أن الكوفية (الحطّة) المرقطة للثورة

الفلسطينية قد التصقت به كما التصقت بياسر عرفات الذي عرف كيف يسخر الأدوات لنصرة الفكرة.
المعسكر البارد في شهر يناير كان يعاني من عدم وجود سخانات للماء، مما اضطر البعض منا وأنا منهم ان يستحم بالماء المثلج عوضا عن الذهاب الى الشام والاستحمام بالحمام الدمشقي القديم، فللضرورة أحكام والصلوات لا تنتظر! فلم يكن من الاستحمام بد وهذا ما كان.
حتى أنني أثناء الاستحمام كنت أظني أرى بخار الماء المثلج يتدفق من جسدي من شدة البرودة.
في الخيمة التي جمعتنا على مدار اسبوعين قابلنا عددا من قيادات حركة فتح الذين أولونا عناية خاصة، فبالرغم من البرودة وعدم جاهزية المعسكر وبالرغم من ارتباطات الغالبية باجتماعات كثيرة في بيروت الا أنهم وجدوا من الوقت الذي يعطونا اياه. ولم نفهم السبب إلا متاخرا فالشبيبة قلب المجتمع والقلب دوما على اليسار كما كان يردد نايف حواتمة من قادة الثورة الكبار، كان من المحاضرين فينا القائد أبوماهر غنيم وعثمان أبوغربية وأبوالرائد الأعرج.

كلاشنكوف

لم يكن لكافة الأسلحة التي تدربنا عليها أي بهجة مثلما هي تلك التي تحس بها مع الكلاشينكوف، فسلاحا «السيمينوف» و«الدكتريوف» يتازعان الخفّة والثقل، وما بينهما يقع الكلاشينكوف.

أما الاسلحة الغربية التي يتربع على رأسها سلاح «الناتو» فلم يكن شكله ولا ملمسه ولا طريقة عمل اقسامه توحي بالراحة كما الحال مع الكلاشينكوف.

لقد كان من الألفة مع هذا السلاح أن رأيت في مرحلة لاحقة من أنك هناك من طلاه بالذهب! ولربما يذهبون الدبابات فهذا ليس من شأننا، انما المقصود أن الإعجاب قد يصل أحيانا بالبعض لحد الهوس.

ولست بالقائل انني قد انهوست بالكلاشنكوف بل يمكن القول أننا تبادلنا الإعجاب معا.

مع التدريبات على المشي والمسير والدوريات كان التدريب على السلاح الخفيف الأخر الذي يتغنى به الفدائيون كما يتغون بابن عمه الكلاشينكوف: كلاشينكوف بيخلي الدم شلال.

أقصد سلاح « الار بي جي» أو «البي سفن» فهو السلاح الآخر الذي جعله أبوعمار رفيق الاشبال الذين تصدوا به لدبابات «شارون» الذي غزا لبنان بحثا عن ياسر عرفات فظفر بالعار بين يديه عبر مجزرة صبرا وشاتيلا التي لاحقته كمجزرة قبية.

وكان هنا لل»»بي سفن» دورا مميزا في المعارك وفي صمود بيروت وفي شهرة أطفال أو أشبال أو جنرالات «الآر بي جي» الصناديد.

نحن الستة كنا معا بين نوم وأكل وشرب وتدريب، وبيننا الحالم والواقعي والمدعي.

وكان زميلنا خالد هو المدعي فهو وطوال السفر يتغنى بالدورة العسكرية التي اخذها في كوبا؟! وهي دورة الدبابات رغم ان الثورة لم يكن لديها الدبابات الكثيرة، ولم تكن بحاجة لها بقدر المدفعية حسب حدود معلوماتنا!

وبما أن خالد أخذ دورة دباباتأ فلا بد أن الأسلحة المضادة للدروع كانت في سياق التدريب وهذا ما أثرناه معه وأكده، بحيث أن مساحة الفخر بقدرته على قيادة الدبابة لم تكن قابلة للاختبار بينما استعمال مضاد الدروع مثل (أر بي جي، بي 7) قابل للاختبار لا سيما وأننا فيما يقوله متشككون بل مكذبون.

في يوم الخميس وهو اليوم الاخير من تدريبنا على الأسلحة الخفيفة، ومازال خالد يتفاخر بيننا بقدرته على قيادة الدبابة واستعمال مضادات الدروع ويتحدى.

فاجأنا المدرب باحضار «البي7» فامتقع وجه خالد.

أصبح الامتحان وشيكا!

ولكن تداركه وارد إن بدأ المدرب بالشرح.

ربما لحسن حظنا، ولسوء حظ خالد لم يبدأ المدرب بالشرح!

بل انتقل للعملي مباشرة.

اذ أنه انتقى واحدًا منّا وطلب منه أن يحمل على كتفه السلاح.

وللحظ المفجع اختار المدرب خالدًا لحمل «البي سفن»!

كتمنا الضحكات، إذ أن الاختبار قد بدأ، والمدرب لا يعلم شيئا رغم ابتسامات الوجوه المتفرجة أمامه

-خذ يا خالد واحمل السلاح

خالد مترددًا: حاضر

وهنا كانت المفاجأة الحقيقية إذ حمله معكوسا بشكل لم يكن ليفعله أي شخص حضر شريطا سينمائيا عن هذا السلاح؟ فلم نتمالك أنفسنا من الضحك.

لقد كان خالد يضع الفوهة الواسعةالتي ينطلق منها لهب السلاح للخلف، كان يضعها بالأمام أما الفوهة الضيقة التي تلقم القذيفة فكانت بالخلف!

ولما انتبه المدرب لذلك، أخذ السلاح من خالد وعدّله على كتفه.

-وصحنا بصوت واحد ضاحكين: يا أخ أبوالعواصف إنه خبير دبابات

-خبير شو؟

-خبير دبابات

-خبير دبابات ولا يعلم كيف يحمل مضاد دبابات؟

-نعم

-لا اظن ذلك

ظل خالد صامتا، ولكم أن تتصوروا امتقاع لونه.

في دار الخيالة

قليل من الترويح كان مطلبًا لنا، فحاولنا الطلب من المدرب السماح لنا بالذهاب الى دار الخيالة أي السينما ورؤية دمشق. وهذا حقنا في يوم الاجازة فرفض كما رفض زميله الثاني! فاضطررنا اللجوء الى الطباخ الذي توسط لنا فسمح لنا ب4 ساعات فقط.

لم نكذب فيها خبر -كما يقولون- لنذهب الى دمشق.

أمّن لنا الطباخ جيبا عسكريا ينقلنا.

وبما اننا اختلفنا بين حضور شريط (فلم) عربي حيث كان يعرض شريط سعاد حسني المعنون: خلي بالك من زوزو، وبين أحد الأفلام الأجنبية الشهيرة وهو شريط كراتيه ل"بروس لي» اضطررنا للاقتراع.

كانت الغالبية ضد سعاد حسني وحسين فهمي فانتصر "بروس لي" الذي كان يطيح بخصومه طوال عرض شرائطه التي شاهدناها سابقًا، وهو الذي يمتلك جسما رياضيًا كان بالنسبة لنا أسطوريا، حتى لحقه فيما بعد «روبرت ستالون» ثم «توم كروز».

دخلنا الصالة التي كانت تعج بالشباب المنبهر بالقوة والقسوة والكراتيه.

وما بين صيحات الجماهير والتشجيع الذي بدأ فيه الشريط، لم نجد بدّا من التركيز أو بالأحرى محاولة ذلك، فلعل التركيز يزيل من على عيوننا غشاوة بسيطة أصابتني على الأقل،

ولم أكن أدري ان هذه الغشاوة كانت بنفس القدر لدى نصف المجموعة المكونة من ستة!

سمعت فقط أصوات الجماهير وهي تصرخ مع بداية الشريط.

وأحسست بيد خالد تمتد لي.

هزّني برفق ثم بشدة قائلا:

-أفِق.

-ماذا حصل، هل بدأ الشريط؟

-أي شريط

-فلم الكراتيه، أم أن الدعايات طويلة؟

-قم يا زعيم، فالفلم انتهي.

-أتمزح!

-قم، السينما أغلقت، وأنا صار لي ربع ساعة أصحّي فيك

وكان اثنان من الزملاء أيضا قد استغرقا بنوم عميق حتى أننا لم نرى إلا القاعة المليئة بالجمهور والقاعة حين فرغت منهم!

خرجنا وبقي أمامنا ساعة فقط استغللناها بالذهاب لأقرب مطعم فول وفلافل ومسبحة لنأكل ألذ بقوليات في حياتنا بالسمن البلدي.

الى لبنان والحقيبة

كانت الورقة المدون عليها اسماؤنا الستة كفيلة بأن تنقلنا بالمسافة الفاصلة بين دمشق وبيروت، إذ ركبنا حافلة صغيرة، ومرت بنا من حاجز للجيش السوري كان يكفيه مجموعة علب من الدخان ليعبر عن انشراحه، وإذ بنا بقدرة قادر على الحدود بين البلدين.

لحظة التقاء الحدود

على الطريق الجبلي الموصل بين البلدين قطعنا المسافة في بضع ساعات فقط.

ولما وصلنا القرية اللبنانية الأولى، اعتذر سائق الحافلة عن الإكمال فمهمّته انتهت الى هنا وسيعود الى الشام!

-طيب نحن ماذا نفعل؟

-اذهبوا الى بيروت

-يعني شايفنا خبراء بالمنطقة! نحن أول مرة نأتي الشام وأول مرة ندخل لبنان، وأول مرة أيضا نرى هكذا ترتيب!

بدأ السائق يحك شعر لحيته، فهو بين رغبة العودة وبين ضميره الذي يؤنبه إن ترك ستة شباب في مهب الريح.

دلّنا على مركز لحركة فتح، بعد أن أشار لأول سيارة اقتربت من الحدود.

وقال لسائقها: سلّمهم لاقرب مقر لحركة فتح!

وودعنا متمنيا لنا السلامة وداعيًا لنا بالحذر فالطريق غير آمن دوما!

يعني وكأنه هكذا طمأننا! لقد زاد من مخاوفنا حتى من صاحب سيارة الأجرة التي حُشرنا فيها حشرا.

أوصلنا السائق لأقرب مركز لحركة فتح تحت هطول خفيف للمطر، وبرودة لم نعهدها.

دخلنا المكتب البسيط الذي توسطته مدفأة تعمل على المازوت.

تكالبنا عليها مع أكواب الشاي الأحمر التي قلّلت من كثير خوف ألمّ بنا

ومن توتر تصاعد حتى كِدنا نبكي.

-ماذا تفعلون هنا؟

-نحن قادمون للتعايش مع القوات

-أية قوات؟

-قوات الثورة الفلسطينية

-أليس المفروض أنهم باستقبالكم؟

-المفروض

-طيب، بما أن هذا لم يحصل ....

-هم لم يستقبلونا أصلا عندما وصلنا مطار دمشق

-كما يرددون الثورة فوضى أو أنها سايرة والرب حاميها

-والله لا ندري هذا ما حصل معنا!

-لا حول ولا قوة الا بالله الآن عليكم الذهاب لبيروت وتسلموا أنفسكم للدائرة

العسكرية

-وكيف الطريق الى بيروت؟

-انتظروا قليلا

قام المقاتل الأول من حركة فتح بالاتصال باللاسلكي بأحد المقاتلين الآخرين، وطلب منه أن يُحضر سيارة لنا ليوصلنا لمجمع السيارات الذاهبة الى بيروت في شتورا.

وهذا ما كان.

تعجبت من اللغة المستخدمة؟ فسائق الحافلة من الشام الى بيروت قال لسائق سيارة الأجرة سلِّمهم، وهذا المقاتل قال لزميله سلّمهم للدائرة العسكرية وكأننا شحنة زيت أوصناديق من الفاكهة! سلمهم!ياسلام!

في مجمع السيارات

وصلنا نحن الستة ومازال الرذاذ يتساقط، ونحن في حال بين الخوف من المجهول وبين لذة المغامرة التي نستشعرها ولا ندري أننا في الحقيقة في أتون معركة! حيث تدور في لبنان حرب عجز المتصارعون عن تعريفها ما بين الحرب الطائفية أو حرب القوى الوطنية في مقابل الانعزالية أو حرب القوى الاستعمارية ضد القوى التقدمية.

في جميع الأحوال نحن فهمنا الحرب ضد الثورة.

المتحاربون بينهم من التناقضات التي تبشّر بالفتنة الكثير

قال لي معلمي في الوطنية: يا جهاد، أن التعدد الثري ما يجعل لبنان جنة التنوع وواحة الديمقراطية الحقّة، ونموذج للتآلف، لكن في واقع الأمر فإن للسياسيين حسابات لا تأخذ بالاعتبار إلا مقدار الربح والخسارة للحزب أو القائد الجهبذ

أو الطائفة أو السلطان أو الاثنية.
قلت له: فتصبح أهداف أي من هذه الجهات وكأنها أهداف الأمة جمعاء.
قال لي: نعم، فينسحق الشعب تحت أقدام مطامع رؤوس المال والساسة وكل منهم يعتاش كالعلق على امتصاص دم الناس.
في مجمع السيارات في مدينة شتورا، قمنا بتفقد حقائبنا على قلتها فوجدنا أن حقيبة عبدالله مفقودة!
كيف لستة أن يضيعوا حقيبة!
بدأ التلاوم بيننا جميعا.
كان من المنطقي أن تجرفنا الأمور بتسارعها والمغامرة بربكتها ولذتها، والجو ببرودته وانتظار المجهول أن ننسى او نهمل تفقد الحقائب مع كل مرحلة.
قال لي معلمي في الوطنية: احذر، ففي حالة الخوف كما في حالة النشوة يفرغ الذهن إلا من حالة التحفّز مقابل الحدث المثير للنشوة أو الخوف.
نسينا الحقيبة، والطامة الكبرى أننا بعد استذكار طويل رجحنا أننا نسيناها في الحافلة ولربما تكون قد عادت الى الشام!
ونحن عنها بمنتصف الطريق بين العاصمتين فما العمل؟

العودة الى الشام

كانت المصيبة إن جاز لنا تسميتها كذلك بضياع أو نسيان حقيبة عبدالله أن ففيها الملابس والأدوات الشخصية ومجموعة من الأوراق الثبوتية وكتاب واحد كما أخبرنا!

لم نكن نحمل سوى ورقة المرور الجماعية، وهواءعليل، ونكات وضحكات في الطريق وطرائف شاركنا بها سائق الحافلة.

-هل تعتقدون أن صاحب الحافلة قد فعلها بنا

-كيف ذلك؟ يا جهاد؟

-أي أنه جعلنا ننسى أحدى الحقائب

-لا اعتقد، ربما، لا أظن! لقد رأيت منه ما يريب، لم أرى منه خطرا...اختلفنا

تنوعت الآراء وكان صوت المنادين على السيارات يرتفع ونحن في مخاضة لم يقطعها إلا صوت نعرفه.

كانت حافلة قادمة بشكل سريع باتجاه موقف السيارات!

عرفناها.

ثم تشككنا.. هي... لا، شبهها... لا بل هي... أنا علمتها بخطوط وخدوش على الميمنة ترقبوها،... لا لا ليست هي

ما بين الأمل والتشكك مرّت بنا الحافلة بدون أي خدوش لا في الميمنة ولا الميسرة!

نظر لنا سائق الحافلة باستغراب حيث أبطأ السرعة على المنعطف أين وقفنا نشير له

-خير، ماذا هنالك؟

-لما رأينا وجهه، وأنه ليس سائق حافلتنا أصبنا بالخيبة، وقلنا له: عفوا كنا نشبّه عليك

إدار وجهه وحرك المركبة.

قررنا الذهاب الى بيروت فالعودة الى الشام وبالطريق غير الرسمي ودون دليل قطعا محفوفة بالمخاطر.

عبدالله والحقيبة

في إرباك فقدان الحقيبة وقرار الذهاب الى بيروت لا العودة للشام ظل عبدالله رافضا فحقيبته ثمينة كما كان يردد!

رغم أننا نحن الخمسة صوّتنا للسفر لبيروت،وجهتنا، وتحمل قيمة شراء الملابس لعبدالله، وبعض المصاريف الأخرى كسلفيات نأخذها جميعا كسلفيات من أحد اقرباء صديقنا محمود الذي كان قد أعلم عمه مسبقا بقدومه.

اصرار عبدالله على العودة وراء الحقيبة اثار التشكك حتى لدى سيارة الأجرة التي ركبناها كل ثلاثة بسيارة. والسيارتان خلف بعضهما البعض.

قلنا له: عندمانصل سنتابع عبر اللاسكي امر الحقيبة لدى سائق الحافلة فلا تقلق.

أدخلناه إلى إحدى السيارتين قسرا.

-عبدالله ما زال يصرخ :اتركوني لاعود إلى الشام وإلا.

-وإلا ماذا؟ أنت لا تعرف الطريق، وفِداك الملابس

-القصة مش ملابس

-وأدوات الحلاقة علي

-ولا أدوات حلاقة

-إن كان بالحقيبة هدايا فهي فداك أيضا

صمت عبدالله فلقد كان همّه عميقا وهو ما عرفناه لاحقا.

فلقد كان للحقيبة أو بالأحرى ما فيها، قصة وأيما قصة!

أنا وعبدالله ومحمود دخلنا سيارة الأجرة الأولى بعد أن ودّعنا كادر حركة فتح المثابر الذي أوصلنا لمجمع السيارات، ودفع عنا الأجرة للسيارتين، رغم أننا حاولنا منعه من الدفع على العادة العربية، حيث احتفظنا بالمحافظ بجيوبنا وهو ما اعتدنا عليه.

في بيروت تبدأ الحكاية

لماذا اختار المتحاربون بيروت مركزا لاقتتالهم مازال الامر مجهولا حتى اليوم فهي وان كانت عاصمة الجمال فلقد عانت على مدار التاريخ من المتناقضين حتى كان أن عثرنا في رقعة قديمة على نص نثري يصفها قائلا:

بيروت اختارت البحر.

ما كانت لبنان في الأمة العربية هامشًا، ولا كانت فاصلة لم تعرف الجُمَل العريضة، وما كانت لبنان نَكِرة أبدًا بين عديد المعرَّفين.

ما كانت بيروت الوصيفة الأولى بين عواصم العرب، وهي الناضجة بالحياة، الساعية عبر متغيرات الأزمان والسلاطين والأنواء نحو شعاع الشمس البعيد تتصيدُ منه البهاء وكثير من الأنوار، بل كانت ملكة جمال الأمة وتاج انبثاقها الرفيع.

حين عرفت الأمة تميزها نصّبت بيروت عاصمة الحياة والجمال، والعشق المزروع بالأضلاع وبين السفوح.

وحين اغترفت من بئر الخلود غَرفَة واحدة ضمت بين جوانحها مقامات الأسياد والمشايخ، وتركات الباشوات، وزوايا الصوفية، وخلوات المحبين، وكنائس القديسين المشتاقين للنور، والعيون الحجازية والقدود الحلبية واللطف التونسي المعتّق، وعصير قلوب المغاربة.

حين عرفت الأمة تميزها فانعتقت من براثن القبضة

الاستبدادية برجالات النضال، كانت بيروت حاضرة، كما كانت ودمشق والقدس رغم أعواد المشانق التي نصبت لأبطال العروبة، فتلطخت أيدي الظلاميين بالدم المسفوح.
بيروت اختارت البحر، كما اختارته حيفا مدينتي، وما انتقلت بعيدًا عن البحر عبر السنين لأنها اتخذت لها بين الموانيء مكانًا بهيجًا لا ينفصل عن ضحكات الغاديات صباحًا، وعبث الساريات ليلا يتلوّين كموج البحر.
بيروت إعصار الاجساد المنبثقة ما بين غيوم العيون، وارتفاعات قطرات الندى على شبابيك البيوت الجميلة الدقيقة الأطراف، المطلّة على الشواطيء الرحبة.
لبنان اختارت من التاريخ أن تحمل على ظهرها التناقضات فتنجو ولا تغرق.
في لبنان يتعايش الفتى المقنع بإيمانه الماضوي مع صبايا الحداثة السافرات، ويشتركون في لعبة شطرنج على أبواب الجامعة، يظللهم خيمة من الكتب المنتشرة من الجنوب الى الشمال.
في بيروت يقف المتحاربون صفا واحدًا لتحية زهرة اختارت أن تشق طريقها بينهم، فيتذلّلون للعبير عساهُ أن يطالهم، تاركين السلاح يغفو قليلا.
بيروت مولاتنا عرفت التناقضات بأجلى صورها، لأنها كالبحر الذي اختارها واختارته للجوار.
بيروت قطب الغوث والأئمة والأوتاد الصوفية، الزاخرة

بالجمال والقبح، بالفوضى ودعاة النظام، بالتذبذب صعودا وهبوطا كجبال ووديان لبنان العربية الفينيقة الخالدة.

لبنان جمعت كل القبائل والنقباء.

جمعت الأجواد منهم فرسموا للجمال مكانةً فيها علِيّة، والتصق بظهرها من كل قبيلة انتهازيٌّ، ومحارب وضرير.

كلهم اجتمعوا يخطبون ودّها، وحين تشير بأصبعها لمكمن النور والجراءة والسرور، يصطفون على شواطئها كالتلاميذ انتظارا لهدوء المدافع وسكون العواصف.

نحن الفلسطينيون في لبنان جزء من كلّ، وهم في فلسطين جزء من كلّ، ولولا ما كان من الوسيط الوهمي الفاصل بينهما، لكنا من المجدل الى طرابلس ومن يافا الى صيدا نسبح في ذات البحر ونصيد من نفس المركب.

لبنان حينما يحزن تظلل الامة غيمة سوداء، وتنغرس في قلب العرب حربة، ويتضرج التعب بآهات المفجوعين، فتلتحق بركب العروبة المذبوحة هذه الأيام من الوريد الى الوريد.

بيروت جعلت من مصير الأمة بين أصبعيها، ففيها الشفق يذوب في صدور الجميلات، ويعود النهار متألقا على أعتاب ساحات الوغى حين تكون قد تدرّعت بالسيف والترس.

لبنان الفوضى والتناقضات والاختلافات والصراخ من كل جانب، هي لبنان التنوع وجمال التعددية، وينبوع الحوار والتشاركية، وعمارة القلوب، ومفتاح المنفلتين من عقال الوسطية والاعتدال والنبوغ.

لبنان لا ترفض أحدا، لذلك عاشت وفي صدرها الأوجاع وكثير من العِلل، لكنها ابتكرت وأبدعت، وصنعت اللقاح الذي جعل من الأوجاع ندوبا على الوجنات أو الأذرع، وتسير بها الحياة.

اجتماع الأمن

كانت الدعوة للاجتماع مفاجئة، في ظل الاشتباكات القائمة مع العدو الصهيوني في الجنوب وفي ظل الاستنفار الحاصل بين صفوف جميع القوات الفلسطينية والقوات الوطنية اللبنانية الممتدة من بيروت حتى صور والنبطية في جنوب لبنان.

غالب القوات كانت إما منتشرة عبر الحواجز أو في الكمائن أو في معسكراتها ترقبًا لأي غارة جوية متوقعة من الجيش الارهابي الصهيوني ردا على عملية فدائية انطلقت من شمال لبنان، من أيام، وقضت على عدد من المستعمرين في احد المستعمرات.

جاءت الدعوة سريعة ومفاجئة وشخصية.

التقى في مقر الأمن الفلسطيني خمسة قيادات فقط من المتوقع وجودهم وعلى رأسهم صلاح خلف الرجل الثاني في الثورة الفلسطينية مسؤول الأمن الموحد في الثورة الفلسطينية، وبينهم ممثل عن القوى الوطنية اللبنانية و٣ آخرين من قيادات قوى الأمن الفلسطيني.

أما الرجل السادس الذي لم يكن أبدا متوقع حضوره، فلقد كان رجل فكر وثقافة وتنظير لذا لم يكن من المتوقع حضوره في هذا الاجتماع أو أي اجتماع شبيه به.
تم الاتصال بخالد الحسن المقيم في الكويت وتمت دعوته للحضور الى بيروت على عجل، فرتب أمر السفر سريعا وبخط التفافي استطاع معه الوصول قبل الاجتماع بوقت قصير.
غرفة الاجتماعات بسيطة تتناثر فيها الكراسي حول الطاولة المستديرة التي وضعت عليها مجموعات من الأوراق والأقلام.
جلست القيادات الأربعة الأوائل بالقاعة، وتركوا مرافقيهم بالخارج، بانتظار أبو إياد والضيف الذي تفاجؤوا بحضوره عندما دخل إلى القاعة.
تقدم أبوإياد الرجل متوسط الطول،سريع الحركة، الأصلع ذو الوجه والشخصية المهيبة ، وبجانبه خالد الحسن الذي يتميز جسديا بطوله الفارع، وشعره الكثيف، اللذان بدأ يقدم كل منهما الآخر على عادة القيادة الفلسطينية، ولكن أبوياد أصرّ ضمن المنطق العربي بتقديم الأكبر سنا أو الأكبر مقاما فدخل أبوالسعيد مبتسمًا على عادته، وسلّم على جميع الحضور، وقبّلهم بالأحضان، وجلس وتبعه أبوإياد الذي جلس بقربه.
كان جدول الأعمال يشتمل على بند واحد فقط، وبعد أن رحب أبوإياد بجميع الحضور وابو السعيد، طلب إغلاق الباب وعدم

المقاطعة من أي إتصال إلا من ياسر عرفات فقط.
أبو إياد يدخل مباشرة في صلب الموضوع: وردتنا معلومات من مصدر موثوق أن الإسرائيليين يبحثون في أوربا، بل وفي الدول العربية عن عدد من الكتب ويصرّون على الوصول لها خلال أيام محددة.
ضحك المجتمعون!
وقال أحدهم: أنحن مجتمعون بعد منتصف الليل من أجل بضعة كتب؟
أبو إياد: لقد قتل ثلاثة من أفضل جواسيسنا بالخارج وفي أحد الدول العربية من قبل الموساد من أجل هذه الكتب؟
-ماذا؟ من أجل كتاب؟
خالد الحسن: وهل الكتاب شيء هين؟
-لم يكن هذا مقصدي؟
-خالد الحسن: لقد دفعت عديد الدول الملايين للوصول لكتب ثمينة تمثل تراثها، ودول أخرى دفعت أكثر لإخفاء كتب أخرى تفضح حكامًا، أو أسرهم، أو تكشف حقيقة تاريخهم أو سحبتها من السوق.
-حسب معلوماتي التاريخية أن الكنيسة الكاثوليكية كانت تمنع عديد الكتب لكي لا تلوث العقيدة حسب فهمها فترة عصور الظلام في أوربا.
-خالد الحسن: هذا صحيح، وحينها صدر ما يسمى دليل الكتب المحرمة للبابا عام ١٥٥٩م. بل ومنعت كتب أخرى من قبل

الأمريكيين والأوربيين لاحقا مثل: روبن هود وأزهار الشر ومدام بوفاري وأمير الذاب، وعناقيد الغضب وكوخ العم توم.

-ببساطة يخافون من الكتب لأسباب دينية أو تاريخية أو....

-أو لأنها تفضح بعضهم

-يجوز.

-أبوأياد: طيب يا جماعة، خلينا نسمع بعض ومن أجل هذا الموضوع كانت دعوتنا للأخ أبوالسعيد، دعوني أكمل.

محطتنا الأمنية في دولة صديقة لاحظت حركة غريبة جدا ومحمومة من عملاء الموساد المرصودين من قبلنا، بحثا عن ثلاثة كتب بأي لغة وكانوا يطالبون بالنسخ الأصلية، وفي هذا البحث تم الاصطدام بأشكال مختلفة بعيدة عن الهدف مع جواسيسنا وتم قتل متبادل بيننا وبينهم، مما أعطى الموضوع صفة الاستعجال ولأن الموضوع ذو صلة بالكتب كان طلبي من الأخ أبوالسعيد مفكر الثورة أن يحضر لربما نفهم مغزي البحث المحموم عن هذه الكتب؟

-هل عرفتم أسماء الكتب؟

-نعم، هي ثلاثة كتب أحدها باسم الخداع والثاني ثورة الزنج والثالث القبيلة١٣... القبيلة ١٢ أم ١٣ لا شكلها ١٣، الخط مش واضح

-طيب شو المطلوب؟

-أبوإياد: نريد أن نصل الكتب قبلهم؟

-دون أن نعرف عن ماذا يبحثون؟

-أبوإياد: لذلك يحضر معنا أبوالسعيد لعلنا نفهم سبب البحث عن هذه الكتب، والزمن المحدد عندهم للوصول لها.

-شيء غريب

-تفضل أخ أبوالسعيد

أبوالسعيد: أن يكون لدي معلومات عن هذه الكتب صحيح فلدي معلومات عن كتابين والثالث اسمه ربما مختلف عما عندي أو هو مختلف، وسأعرض عليكم معلوماتي التي احتاج للتدقيق فيها أكثر، أما الزمن فباعتقادي يرتبط بالانتخابات عنهم فلربما يفضح كيانهم أو زحد أحزابهم أو شخصياتهم، بمعنى ....

-أو لربما فيهم أو أحدهم، شيفرة ما أو سر ما

-أو وصفة ما ، أو قائمة لشيء

بدأ الحضور في تقديم عدد من المقترحات والتوقعات والاحتمالات للسبب الذي يجعل المخابرات الاسرائيلية تشتبك معنا، والذي يجعلها تبحث عن هذه الكتب بشكل محموم، بل وصل الأمر إلى توقع أن تكون قد تضمنت أسماء مسربة لعملاء الموساد مثلا...

-أبو أياد: طيب يا أخ أبوالسعيد ماهي هذه الكتب ذاتها، وماذا تحتوي؟ ما هو مضمونها؟ فقد يكون للمضمون أو العنوان ذاته صلة استخبارية ما؟

-ابوالسعيد: محتمل فعلا أن يكون الكتاب أو الكتب أحدها أو كلها له صلة بسبب البحث.

ثورة الزنج كثورة هي ثورة قامت بالعصر العباسي من الزنوج المستقدمين الى العراق ضد الاستغلال والأعمال الشاقة والمعاملة الرديئة التي كانوا يُعاملون بها من سادة العراق ومتعهدي العمال من الزنوج وفي هذه الثورة كتبت الكثير من الكتب فمنهم من اعتبرها ثورة طبقية اشتراكية، وهناك من رفض ذلك واعتبرها ثورة اجتماعية للبيض والزنج معًا ضد الظلم، ومنهم من اعتبرها تمثل انحرافا عقديا دينيا، وأن كنت الترجيح أنها ثورة اجتماعية أما عن الكتب حولها فكثيرة، وسآطلب من الأخ أبوإياد أن يزودني باسم المؤلف لنعرف عن أي كتاب يتم الحديث

-أبوإياد: ان شاء الله.

-يتابع أبوالسعيد: أما كتاب القبيلة ١٣ فأنا احتفظ بنسخة منه، بلغته الأصلية، وهو يتكلم عن أصل المحتلين لفلسطين اليوم وأنهم لا صلة لهم بقبيلة بني إسرائيل القديمة، وأنما هم من سلالة أسيوية في منطقة بحر الخزر قزوين حاليا والكاتب اليهودي الهنغاري يؤكد بالوثائق التاريخية هذا الأمر.

-نحن نعلم أن كل اليهود من أصل واحد!

-هكذا هي الدعاية رغم أنه معروف أن الديانة شيء، وأن القبيلة أو الأمة شيء آخر بالقطع.

-ليس هذا مجال حديثنا، هذا ممكن أن يكون محاضرة هامة لكن ما علاقة ذلك بمجال البحث للمخابرات الصهيونية هذا ما جمعنا، وكيف نصل لهذه الكتب؟

-أبوإياد: طيب يا اخوان، لنهدأ ثم يلتفت لأبي السعيد: وماذا عن الكتاب الثالث ما اسمه؟

-اسمه الخداع يا أخ أبوالأديب.

أبوإياد: نعم، نعم، كتاب الخداع

-أبوالسعيد: هذا العنوان يحتاج لتدقيق، دعوني أبحث عنه في المكتبات وسأجري عددا من الاتصالات، وعندي ندوة في لندن سأبحث في مكتباتها التي أعرفها جيدا.

-أبوإياد: اذن لدينا كتاب واحد موجود عند أخونا أبوالسعيد، هل يمكن أن ترسله لنا عندما تعود؟

هز أبوالسعيد رأسه بعد أن أعاد إشعال غليونه.

-أبوإياد متابعا: ولدينا بحث عن كتابين أخرين، ولكننا لم نحسم سبب البحث الصهيوني المحموم عن هذه الكتب

-لربما الحقيقة تكمن بأحدهما، وما الفكرة المسربة أنهم يبحثون عن ثلاثة الا للتضليل عن أحدها أو غيرها

-ممكن!

يدخل أحد المرافقين ويوشوش أبوإياد بكلمات فينظر صلاح خلف في وجه المحاضرين ليبلغهم بغارة جوية إسرائيلية في الجنوب، ودعوة من الأخ أبوعمار لاجتماع للقيادة وأنه مضطر لحضوره مع أبوالسعيد وأبوالهول.

في المعتقل

كانت عملية الإعداد لعملية عسكرية ضد الكيان الصهيوني الغاصب تمر بعدة مراحل لا يستطيع معها أي شخص أن يقوم بالعملية العسكرية لأنها تحتاج لاعداد جسدي وعسكري ونفسي مسبق وهو شاق وطويل ويحتاج لقوة إرادة لا يكفي معها الإيمان لوحده.

الإيمان لوحده حافز للعطاء، كما قد يكون حافزا للهدوء المقعِد عن العمل، فما دام القلب مطمئن بالإيمان والعمل السيء مما أتجنبه، فأنا بالسليم لكن الإيمان القوى يتحول إلى حافز ويمتشق سيف الإرادة ليكون الفعل.

لذلك فلقد كان التأهيل النفسي والإيماني المسبق هو المدخل والمفتاح الثاني بعد التأكد من السلامة الأمنية الكاملة ويترافق معه الاعداد الجسدي الرياضي الشاق.

فمن سيقوم بعملية عسكرية ضد العدو الصهيوني يعلم أنه سيتعرض لصعوبات جمّة، وقد يصعد جبالا أو ينزل وديانا، ويتخطى كمائن وحواجز، وعليه فهو بجسده النحيل سيخور، وبجسده المتين سيتحمل الكثير من الصعاب والتي منها كيف يقف صامدا أمام المحقق حينما يتم أسره لا سمح الله.

كان رفعت يُسهب بالحديث عن العملية العسكرية التي قام بها هو وزملائه للاخوة في زنزانته، بعد مسار طويل من التحقيق والتعذيب والمحاكمة والحكم بالمؤبدات ثم الإلقاء به، وهو مصاب بصدره وفخذه بعدة رصاصات الى ما يسمى

نظريا مستشفى السجن الذي لا يخرج عن نفس شكل أي سجن من حيث الزنازين والحراسات، وحتى لبس الأطباء مفقود واستبدل بالبدل العسكرية.
يكمل رفعت كلامه لا سيما وأنه مطلوب لإلقاء محاضرة عن تجربته الثورية مع اصدقائه السبعة الذين قاموا بعملية حيفا الشهيرة، عملية الشهيد د.علي شريعتي والتي نزلوا فيها على شواطيء حيفا من سفينة قبرصية ثم عبر قوارب ومعدات غوص عميق.
كان الليل دامسًا وكانت أضواء حيفا تتلألأ من البعيد، لا سيما أن بيننا جهاد إبن حيفا الذي يحفظها بالتفصيل المملّ من كثرة ما تحدث له عنها والده المقيم في مخيم جرمانا الذي يبعد ما يقارب 8 كيلومتر عن دمشق في سوريا في الطريق المؤدي الى المطار، لذا فكان شوقه مضاعفا عن كل زملائه.
ومع هذه الأضواء، كنت أظن أنني أشاهد معبد البهائيين وجبل الكرمل... وقلبي ما بين خفق وتوتر وخوف وأقدام يتردد ويكاد صدري لا يتسع لوجيب القلب وألحانه العازفة حتى خفت أن يقفز من صدري في البحر!
فلا أعلم أيكون تركيزي على أي قلب؟
هل أركز على قلبي المخلوع منذ الطرد الكبير والنكبة عام ١٩٤٨؟
حيث كان التجلي الأكبر في وجه أبي الذي كان منطفئا وعبوسا بما لا يقارن بعبوس يوم سحاب يستعد للمطر؟

أم أركز على قلبي الذي سقط بالماء! أو يكاد!
المهم أني تداركت الأمر، وأقنعت قلبي البقاء في مربضه، أذ لا داعي لأن يقفز مبكرا قبل أن نكون بمستوى البحر القريب بحر حيفا.
هم ينظرون له داخل الزنزانة ما بين فاهم ومستنكر هذا الخليط من المشاعر ومن الحقائق، قد لايميزون فيه من وقائع العملية إلا بتمشيط أرضية كلامه من الحواشي الأدبية والكلمات المحمّلة بجبال من العواطف وهو ينطلق.
كنا قد تدربنا في أكثر من مكان في هذه الدنيا من سوريا الى قبرص الى...سأكتفي الى هنا المهم أن أنواع التدريب إلى ما سبق كان منها التدريب الإلكتروني الذي به نستطيع أن نتعامل مع الإشارات الالكترونية وغيرها رغم أن العملية بحرية، وكانت برأيي تحتاج لتعلم الغوص أكثر من المطلوب.
-نحن نعلم من الصحف أنكم غصتم، ثم سبحتم مسافة طويلة حتى وصلتم شواطى حيفا فكيف لذلك أن يحدث ويغرق منكم واحد!
-نعم لقد غرق الأخ أحمد من أخواننا في تونس، لخطأ كان في بدلة الغوص على ما ظهر لاحقاً، مما عرفته عَرَضا من المحقق الإسرائيلي.
تخلف أحمد عنا قليلا، فلم نتابعه والمسافة حتى الشاطيء طويلة، وهو لم يكن على ما يبدو سباحًا للمسافات الطويلة، وهو ما لاحظته أثناء التدريبات وأشرت للمدرب الذي اهتم

به اهتماما خاصا.

وصلنا على الشاطي الطويل الممتد على كتف مدينة حيفا في عتمة الليل.

-هذه التفاصيل حتى دخولكم مدينة حيفا أسهبت في ذكرها الصحف، وكذلك خداعكم الإسرائيليين، ولكن ما نود معرفته هو ماذا حصل بالضبط حين وصلتم الى شارع بن غوريون لعنه الله، وهو الشارع الرئيسي في المدينة، وهو بالحقيقة الشارع العربي الألماني فيها.

-طيب. وصلنا الشارع الرئيسي بالمدينة الذي عرفنا لاحقا أنه يربط البحر بمركز البهائيين، وكانت الأوامر المشددة لدينا كما العادة هي عدم المساس بالمدنيين فقبعنا نترقب اصطياد الجنود الإسرائيليين لا سيما انهم منتشرين في هذه الأيام احتفالا بيوم الجيش الصهيوني في حيفا.

-قصدك عيد أو يوم ذكرى قتلى الجيش والإسرائيليين في الحروب المختلفة

-مهما كان الاسم، نعم اعتقد في ذاك اليوم الذي حسب معلوماتنا الاستخبارية كان سيعقد له حفل كبير في حيفا، وبمشاركة الجنود المنتشرين في المدينة منذ أيام.

-بل يسمونه أيضا يوم ذكرى شهداء معارك إسرائيل،وتقام مراسم تأبينية رسمية لإحياء ذكرى قتلاهم في كل المقابر العسكرية، بحضور العائلات الثكلى، شخصيات عامة، ممثلي الحكومة، الشرطة والأجهزة الأمنية الارهابية، فيما

تقام مراسم الذكرى المركزية في المقبرة العسكرية على في ما يسمونه جبل هرتسل في القدس. وهو بالحقيقة اسمه الأصلي جبل عين كارم في القدس.

-نعم علمت ذلك من مختلف قراءاتي السابقة، ومؤخرا من قراءاتي الحديثة بالسجن حيث قاموا مع قيام الكيان الصهيوني كما ذكر الكاتب الإسرائيلي ميرون بنفنستي في كتابه المشهد المقدس طمس تاريخ الأرض المقدسة منذ العام 1948 قاموا بعبرنة كامل الخريطة الفلسطينية بإطلاق أسماء توراتية على كل المواقع والصحاري والهضاب والجبال والوديان العربية الفلسطينية ...الخ، بتزوير كامل كما فعلوا في القدس وفي كل شيء.

-أرجوا ألا نكون خرجنا عن الموضوع! أو أن مثل هذا الحوار الثنائي بعيد عن مفهوم المحاضرة علميا!؟

-لربما، فمن المحاضرين مَن يستفزون بكثرة المقاطعة أو الأسئلة، ويحبون الحوار نهاية المحاضرة، كما أعلم، ولكن بالنسبة لي لابأس لأنني بين أخوة مناضلين وحوارنا وهو كذلك، أكثر من أنه محاضرة يفتح أبوابا كثيرة قد تكون مفيدة للأشبال بين الحاضرين.

-هل يسمح لنا الحضور بأن اكمل؟

يصيحون من داخل القسم أكمل تفضل تابع. ولكنه ينظر لمدير المحاضرة فيوميء له ان يستمر.

-في حيفا شاهدنا كثير من الجنود ، وبدأنا نتخير فاخترنا

مجموعة صغيرة من الجنود الراجلين حيث أحطنا بهم من حيث لا يدرون، واقتدناهم لأول مقهي، وأغلقناه واستخدمنا أجهزتهم اللاسلكي في المطعم بعد أن أقفلناه جيدا طالبين المبادلة بالأسرى المحكومين بالمؤبدات مقابل الجنود المأسورين لدينا.

-كم كان عددهم!

-كانوا عشرة جنود لم يقاوم أي منهم، حيث فوجئوا تماما باللباس العسكري الاسرائيلي الذي كنا نلبسه، وباللغة العبرية التي تكلم بها جهاد ابن حيفا، وكان قد تعلمها في أحد أقسام جامعته بالخارج واختلط بعدد من الاسرئيليين بالخارج فحفظ لهجاتهم المتنوعة كما تنوع أصلهم العرقي من غالب دول أوربا وأسيا الوسطى.

-قالوا أن صاحب المطعم كان يهوديا مغربيا؟

-كان يتكلم عربية مكسرة، ولم نكن نهتم هل هو عربي أم من أي بلد آخر، ولكنه مدني فأطلقنا سراحه، وهو ما بين مصدق ومكذب يركض وينظر إلى الخلف ظانًا أننا سنطلق عليه رصاصة من الخلف كما يفعل جنوده، فخاب ظنه!

-لكنه تحدث على التلفزة الإسرائيلية ليقول أنكم وحوش!

-وما الجديد في ذلك! هم لا يكفون عن اتهامنا بما هم أهل له.

-طيب، وبعد أن فرّ صاحب المطعم ماذا حصل؟

-لم يفر، نحن أطلقنا سراحه.

-مفهوم.

-احتفظنا بالطباخ وكان عربيا فطلبنا منه طعاما لنا نحن جميعا فأكلنا والجنود الإسرائيليين بعد أن جردناهم من السلاح، وكل الأدوات التي يحملونها

-حسب الصحف ونشرات الأخبار تندرت بالقول أنكم طلبتم (شيش برك) و(قدرة غزاوية) و(مسخن) وطلب الجنود الإسرائيليين الفول والفلافل ومنهم من طلب الهلالية (الكرواسان)!

- وماذا في ذلك، كانت المسافة طويلة وكنا في حالة إعياء وجوع شديد

-وقال الطباخ أنكم كنتم لطفاء معه، ومع الجنود ومع صاحب المطعم

-هذا صحيح، وهل نحن نحارب الا العسكريين محتلي بلادنا، كما تعلم، ويعلم كل الحضور، رغم أن معظمهم للأسف هم مستعمرون وجيش احتياط لكننا شعب انساني ما هو صيرورة تاريخنا.

-خلينا بالفول والفلافل، لقد قالت الصحف العبرية إن الجنود أثبتوا بهذا الطلب أنهم من أهل البلد؟

-ماذا؟ هل سرقتهم للفلافل تؤهلهم لامتلاك البلد!

-هذا ما قالته بعض صحفهم للحقيقة.

-دعني أذكر لك قصة لقد التقيت بحياتي بالعديد من اليهود التقدميين في دول عديدة، ومنهم من هو مؤمن بحق الفلسطينيين بأرضنا وهم على قلتهم الا إنهم انسانيين ومنهم

من يؤمن بصهيونيته ولا يريد أن يعترف باستعماريته لبلادنا، لكنه حفاظا على دوام كيانه يطالب بحل الدولتين. وفريق ينكر كل شيء كمن ينكرالهولوكوست الألماني ضد يهود ألمانيا، أي أنه ينكر النكبة عام ١٩٤٨ وكأنها لم تحدث اطلاقا! وسألته سؤالا....

-تدخل أحد الحضور مقاطعا ورافعا يده وطالبا الكلام وبعد أن أذن له قال: نعم صحيح وأنا هنا بعد أن اعتقلت وتم التحقيق معي كانوا يجادلونني بأن هذه أرضهم وأن القرآن كتبها لهم؟ وبالطبع هو مفهوم سخيف لأنهم ينسبون أنفسهم لقبيلة بني اسرائيل العربية المنقرضة حيث ثبت من كل المصادر الحديثة أن لا صلة لهم بتلك القبيلة المندثرة إلا صلة الانتماء لنفس الديانة لبعضها أي اليهودية.

-تماما كما ادعى أحد رؤساء وزرائهم المدفونين وهو "بيغن" أنهم بنوا الأهرامات (بتاعتنا).

استغرب مدير الدورة والمحاضرة كلمة بتاعتنا فوجّه سؤاله لرفعت قائلا: أنت مصري؟ أم أنك درست في مصر؟

-أنا عربي مصري فلسطيني.

لا مجال للاستغراب في ذلك، لكن المعرفة جيدة فالثورة الفلسطينية ضمت في صفوفها من كل الجنسيات العربية بل وغير العربية وفي هذه العملية العسكرية كان المثال على ذلك المزيج الذي يمثل التقاء الروح العربية والإرادة الثورية التي تنزع للحرية والقضاء على الاحتلال.

-سأكمل الواقعة حيث أنني سألت أحد الأصدقاء اليهود عن أهم حلويات يهودية فنظر لي مطولا وقال: من كل قطر أغنية، أي لا حلويات خاصة لمجمل كل الإسرائيلين المقيمين في بلادنا اليوم.

-فهمت، طيب وبعد ما طلبتوا المسخن والفلافل من الطباخ في المطعم.

-بدأنا بالأكل فإذ بأحد الجنود قد انتابته نوبة بكاء

-لماذا؟

-لم نفهم، واعتقدنا إما أنه خائف، أو لربما يمثل، فصرخ به أحدنا ثم حاول أخر تهدئته فلم نفلح، ولما لم ينفع كلام جهاد معه طلبنا من الطباخ أن يعرف ماذا يريد؟

-وماذا كان يريد؟

-كان معتادا في كل صباح أن يكلم أمه هاتفيا!

-لم نقرأ هذا بالصحف؟

-نعم، ولما علمنا ذلك، دوت القاعة، قاعة المطعم... بالضحك، حتى أن الجنود الإسرائيليين المتجمعين بالمئات خارج المطعم بأسلحتهم، قد صمتوا مشدوهين على صوت قهقهاتنا.

-فعلا غريب وماذا فعلتم به؟

-ماذا تعتقد لقد قمنا بالبحث عن هاتف المطعم، وسلمناه للجندي وطلبنا منه ان يطمئن أمه على شرط!

-وما هو هذا الشرط؟

-أن تخرج أمه على مختلف وسائل الاعلام تناشد الافراج

عن الأسرى الفلسطينيين، وتمكين الفلسطينيين من استقلالهم في دولتهم؟

-وهذا ما حصل وسمعناه ورأيناه.

-بعد أن كلم أمه وطمأنها، توقف عن البكاء، فلقد كان أحد المستعمرين الجدد القادمين من ألمانيا إلى فلسطين حديثا، وما زالته لغته الألمانية أقوى، ففهم له زميلنا قاسم من الكويت الذي كان يعيش في برلين، وتطوع معنا في الثورة من زمن طويل فأفهمنا أنه يتحدث لها مرعوبًا مشيرا ألينا بصفتنا المخربين والارهابيين، فتركنا له قاسم ينتحي به جانيا ليفهمه من هو الأرهابي؟ قاطع الطريق أم الناس الآمنين في بيوتهم؟ وهل هو المستعمرالغازي أم الذي احتلت أرضه؟

-اتركنا من قاسم والجندي، ولنتابع... على فكرة هل عرفتم اسمه؟

-نعم هذا كان أول ما سألناه عنه فكان اسمه شميدت أي أنه اسم الماني قح

-قلت ان الجنود في الخارج كانوا بالمئات فكيف تعاملتم معهم؟

-كنا نحادثهم بالبداية عبر اللاسلكي. ثم عبر هاتف المطعم حيث طلبنا من شميدت أن يجاوب مسؤول القوة الاسرائيلية التي تحاصر المكان، وكانت مطالبنا كما هو معلوم مبادلة الأسرى من المؤبدات بالأسرى من جنودهم لدينا

-ألم تأخذوا العبرة من العمليات السابقة وعلى سبيل المثال من

عملية كمال عدوان التي قادتها دلال المغربي عام ١٩٨٥م -بالطبع اعتبرنا، لكن قصة الأسرى لدينا قصة مقدسة كما اللاجئين والأرض، كما أظنك وكل الشباب تعلمون، لذا كان لابد مما ليس منه بد، ومع علمنا ايضا بأن مصيرنا أما الشهادة أو الأسر.

كان قد حان موعد الغداء بالسجن، فتوقفت الدورة وتوقفت المحاضرة التي اتخذت شكل السرد والحوار الثنائي منعطفة عن الشكل التقليدي للمحاضرة على أمل أن يكمل رفعت المصري المحاضرة في جزئها الثاني في الدورة لاحقا.

كتاب القبيلة ١٣/ ابوالطيب/السنة ٢ جامعة نشر بالانجليزية عام 1976م/ أرثر كوستلر (1905-1983م)

كتاب ثورة الزنج/قصة المشي الى المدرسة الزنج=الشيوعية/السنة الثالثة /فيصل السامر (1983-1926م) صدرت لأول مرة عام 1954 ونفدت ثم الطبعة الثانية في بغداد عام 1971م (وزير الارشاد من العام 1959-1961م فترة عبدالكريم قاسم)

****

سيناريو آخر

في الثاني من آب

رواية

عملية الشهيد هاني فحص

١-قاسم/كويتي/من الفيحاء/ مقيم في بيروت

٢-احمد/ تونسي مقيم في القيروان/ مات غرقا

٣-رفعت/ مصري/ من الاسكندرية/مصاب في الصدر والرجل اليمنى

٤-جهاد/ فلسطيني أصله من حيفا والده مقيم في سوريا مخيم جرمانا

٥-ميسون فلسطينية من نابلس/مقيمة في الامارات

٦-لارا من قرية المسمية بالداخل ثم الخليل-استشهاد

٧-عمر من قطاع غزة مهاجر من الأصل في قرية سمسم/ استشهاد

****

كتاب الغدر (perfidy)/بيروت/السنة اولى جامعة عن محاكمة كاستنر عام1954 والكتاب كتب عام 1961 (أنظر الموسوعة الحرة) للمخرج والمنتج والصحفي الامريكي (***Ben Hecht)*** بن هيكت (1893-1964م).

المجموعة الرابعة:

أبونرجس والانتخابات

أبونرجس يدخل الانتخابات بقوة!

عبدالرحمان مقاول مجتهد يعمل في قطاع البناء والخرسانة، وهو مقاول متميّز من حيث دقة المواعيد ونوعية الخرسانة (الباطون) التي يجلبها لزبائنه من شركات تصنيع الخرسانة، وهي المادة المعروفة المصنوعة من الصخور والرمال والماء في المزيج الفريد مع المادة اللاحمة أي الأسمنت.

ولأن عبدالرحمان الرمَال -نسبة للرمل وباعتباره أحد مكونات الخرسانة لُقّب به- يتمتع بشخصية ذات مصداقية على المستوى الشعبي الاقتصادي والتجاري، فلقد وقع عليه الاختيار من قبل أكثر من قائمة انتخابية في فلسطين ومنها قائمة: متّحدون من أجل اللوز الأخضر، ليكون ضمن تركيبة القائمة المُزمع أن تترشح للانتخابات.

عبدالرحمان يُحبّ أن يكتب اسمه بالألف الممدودة في مفردة الرحمان، التي لا معنى لجعل الألف فيها مبتورة أو مخفية كما يردّد دومًا، إلا في كلمة بسم الله الرحمن الرحيم فقط لجمالية الشكل، لأنها أي الرحمان على نسق وتفعيلة نعسان وزعلان وفرحان وجحشان وقُربان وإنسان وهكذا، ما فهمه من صديق تونسي سبق وألتقاه في مؤتمر الخرسانة العالمي من أعوام.

عموما، عبدالرحمان الذي أحب عمله، وجعله ميسورًا، لا تخرج أحاديثه عن الإشارة لاسمه وإشكاليته الكتابية، وعن

الحديث في المال، والحديث عن أنواع الخرسانة وأماكن تصنيعها ونوع الشاحنات الناقلة للمادة المستخدمة في البناء، هذا مع العلم أن هناك العديد من المواد الأخرى المستخدمة في البناء لكنه يصرّ على أن الخرسانة ولا غيرها هي المعنية بالبناء وغيره لا معنى له.

يكمل أحد أعضاء قائمة: متحدون من أجل اللوز الأخضر حديثه عن الرجل لرأس القائمة مضيفًا أنه: عندما سمع عبدالرحمان عن عمل العلماء على مواد بناء حيّة من البكتريا للتكاثر ضحك عاليا! رغم دقة الموضوع المطروح علميًا ونشره حيث يتم إنتاج مواد بناء حية، وذلك باستخدام البكتيريا الزرقاء التي يمكنها القيام بالبناء الضوئي من أجل معدنة دعامات الرمل والهلام.

وبناء عليه فإن الفكرة التي تراكبت في ذهنه هي أوحدية وشرطية البناء المرتبط بالخرسانة رغم أن الحجر والقش والخشب والطين وغيره قد كان سابقًا على هذه التقنية التي تستأثر بسوق البناء في العالم منذ اكثر من 100 عام.

ما يهمنا هنا -كما كان يكمل الشرح أحد أعضاء قائمة متحدون لرأس القائمة- أن الرجل لا يرغب لا من قريب أو بعيد أن يفقه الجديد أو ينظر للمستقبل، رغم مهنيته العالية واخلاقيته من حيث الانضباط والأمانة والوقت.

في رحاب منزل السيد جميل البربري المتربع على ربوة في أحدى قرى فلسطين المحتلة دار الحوار مع عبدالرحمان في

صالون البيت، بقصد ضمّه للقائمة، قائمة متحدون من أجل اللوز الأخضر.
البربري: أهلا بالأستاذ عبدالرحمان
عبدالرحمان: أهلا بك ومرحبًا، ولكني معلّم ولست أستاذًا
البربري: نعم أقصد معلّم. ويا معلم عبدالرحمان كما تعلم فإن الانتخابات تدقّ الأبواب
عبدالرحمان: أية أبواب!
البربري بابتسامة فاترة، وناظرًا للشخص الذي قدمه له: أقصد قد اقترب أوان الانتخابات!
عبدالرحمان: آه، نعم، صحيح قد اقترب.
البربري: ونحن نسعى كما تعلم بالبحث عن الكفاءات الوطنية والاقتصادية لتكون في قائمتنا
عبدالرحمان بنظرات تعجّل: نعم، سمعت بذلك
البربري: وأنت كنت واحدًا ممن تم ترشيحهم لنا لخبرتك وأمانتك
عبدالرحمان- متفاخرًا ومندفعًا: وأيضا لإسمي اللامع الفاقع بالسوق البربري مع قليل من الاستغراب: صحيح!
عبدالرحمان: تفضل
البربري: لذا، وبعد اطلاعك على برنامجنا الانتخابي المقترح...
عبدالرحمان-مقاطعًا: لا والله، لم أطّلع على شيء، ماهذا؟
صرخ البربري على أحد مرافقيه: ألم تسلّموا المعلم

عبدالرحمان الرمّال نسخة من مشروع برنامجنا الانتخابي؟
أجاب المرافق: بلى، سلمناه!
تدخل عبدالرحمان صائحًا بالرجل: لا، لم أستلم شيئا
المرافق موجهًا كلامه لعبدالرحمان: لقد سلمته لك بالامس يا معلّم، في موقع البناء...ألا تذكر؟
عبدالرحمان: بالأمس،نعم تذكرت، اعتقدت أنك سلمتني عروضا تجارية ما؟ فاستخدمنا الورق في الأكل.
البربري مستغربّا: في الأكل!
عبدالرحمان: افترشنا الأوراق تحت طلبية الأكل في الموقع عندنا
أشار البربري للمرافق أن يذهب، وأكمل حديثه: على كلّ يا أخ أبو نرجس لندخل بالموضوع، فلا نريد أن نأخذ كثيرا من وقتك الثمين
عبدالرحمان أبو نرجس ينظر لساعته: نعم، لندخل بالموضوع، لدي صبّة باطون.
البربري: نريدك أن تشرّف قائمتنا: متحدون من أجل اللوز الاخضر، وتكون عضوًا فيها
عبدالرحمان: نعم، سأشرّفكم، وكم ستعطونني؟
البربري ومازال العجب يلاحقه: نعطيك ماذا؟
عبدالرحمان: تدفعون لي!
البربري: تقصد ندفع لك مالًا!
عبدالرحمان: نعم، وهل تظن ابتعادي لأيام عن عملي

التجاري مجاني؟
البربري متفاجئا: وكم ترى ذلك؟
عبدالرحمان الرمّال المصرّعلى حرف الألف في إسمه،كما إصراره على عراقة الخرسانة، أخرج جواله الأنيق، وبدأ يحسب على الحاسبة في الجهاز.
قال: سأتعطل عن عملي 67 يومًا.
البربري-لا يدري ماذا يفعل أو يتحدث! فقال: طيب.
عبدالرحمان: ويوميتي كمعلم باطون هي 500 شيقل، فيصبح الاجمالي هو 33500 شيقل أتسلمها نقدي ومقدمًا.
البربري باسمًا: سيتم تعويضك حين النجاح للقائمة يا معلم أبونرجس!
عبدالرحمان بغضب: هذا لا يقنعني، فالنقدي فقط هو ما أفهمه بعملي.
البربري ساخطًا، ولكن كاتمًا غيظه: كنا معتمدين أن تضع معنا كتف؟
عبدالرحمان يحكّ شعر رأسه!
البربري: يعني تتساهل معنا قليلًا، وتكون داعمًا ماليًا للقائمة، وعندما ننجح يكون لنا شأن آخر.
عبدالرحمان أبونرجس:...........
البربري: لنتجاوز هذه النقطة المالية مؤقتًا، ونتكلم عن ترتيبك بالقائمة
عبدالرحمان لا ينفك ينظر في ساعته: نعم، تفضل بسرعة.

البربري: كيف ترى ترتيبك؟ وأنت تعلم أن في القائمة مجموعة من القيادات: السياسية والثقافية والاقتصادية، ونحن سنضع الشباب والمرأة أيضا بمواقع متقدمة

عبدالرحمان: كل هؤلاء قبلي يعني؟! ياسلام! فهل سيكون رقمي فوق الخمسة الأوائل هؤلاء؟

البربري: لا، وأنت الصادق أكثر يا معلم أبونرجس.

عبدالرحمان: أوف! ماذا؟ أتقصد فوق العشرة الأوائل؟

البربري: القصة مش ترتيب فقط، نحن نتفق على برنامج لخدمة الوطن ولخدمة الناس

عبدالرحمان مندفعًا: دع عنك هذا الكلام، وقل لي ما ترتيبي بالقائمة؟ فأنت من فتح الموضوع، ولا تضيّع وقتي..

البربري متضايقًا: نقترح أن تكون رقم 27 وباذن الله وهمة الشباب قد نتحصل على 30 مقعدًا

عبدالرحمان واقفًا بغضب: يا الله، خليني بالخرسانة (الباطون) أحسن.

البربري محاولًا ألا ينفجر: كما قلت لك، نحن نُنجح برنامج وطني، وبأسماء نظيفة مثلك

عبدالرحمان بخشونة: قائمة «الكوكب المتجدّد» عرضت على مبلغ أكبر، وموقع الثالث فيها؟

البربري: معقول قائمة «الكوكب المتجدد» فعلت ذلك؟

عبدالرحمان وهو يهم بالخروج: نعم، والله، ولماذا سأكذب عليك؟.

البربري:صادق، لكن الموقع الثالث لسيدة؟

عبدالرحمان واقفًا يصرخ: ماذا تقول؟ لإمرأة! يعني ضحكوا عليّ؟! معقول؟

البربري وقد فقد الأمل بالرجل، ولكن: هل لنا من لقاء آخر يا معلم أبونرجس؟

عبدالرحمان الرمّال (أبونرجس) وقد أصبحت أقدامه أبعد من صوته: خلّيني (دعني) أراجع قائمة الكوكب المتجدد أولًا، وأعود لكم! أوقد لا أعود.

بعد خروج أبونرجس مسرعًا، قال جميل البربري لأحد مساعديه: إن كان كلّ من ستأتي بهم لتشكيل القائمة معنا على هذه الشاكلة، فلا حول ولا قوة الا بالله، والعوض بسلامتكم على اللوز الأخضر، واللوزالمقشّرأيضا.

مرشحنا يلتقي القائد الجهبذ!

ألصق صورتَه على واجهة صفحته في منصة شركة فيسبوك التنفيسية الأكثر استخدامًا في المنطقة العربية ومنها في فلسطين، وأعلن -بالطبع بعد الاتكال على الله- ترشيح نفسه للانتخابات التشريعية!

شرحوا له أن الانتخابات ليست فردية وإنما على القائمة النسبية

وما هي القوائم؟

يجب أن تترشح لتكون ضمن قائمة؟

سأكون...

وعلى الأقل معك 15 شخصا آخر

طيب!

والثالث بالقائمة امرأة

يا لطيف، لماذا؟

هكذا القانون.

لا حول ولا قوة الا بالله... بدأنا بالإحباط؟

وهل تظن العملية الانتخابية صورة على فيسبوك؟

أنا لا أظن لأن تاريخي يتكلم!

عمومًا كان هذا الحوار الأولى مع السيد محمود، إلا أنه ورغم جهله الواضح بقوانين الانتخابات كان مُصِرّا على تقديم نفسه، والإصرار سمة قوية بالشخصية، وإن كان

هذا حقه قطعًا أن يترشح، فإن عدم معرفته بأوليات العملية الانتخابية لا جدال فيها، وهو ما جعله ليكسر حلقة جهله أن يتقدم خطوة الى الأمام

ذهب محمود الى أحد قيادات الفصائل الفلسطينية، فهي الأكثر تنظيماً رغم رائحة الفساد المرهقة التي كونتها الجماهير عن بعض هذه القيادات، التي عكست نفسها على تنظيمها فوُصِم بالفساد أوالوضاعة، ومنها كان القائد عضو المكتب السياسي للفصيل الذي ذهب لزيارته، فرائحة فساده لا تُطاق، ولكنه اليوم هو وجه القائمة التابعة للفصيل.

في الأيام العادية لم يكن لك أن تحلم بزيارته

في الأيام العادية باب القائد مغلق أبدًا

نعم،القائد هكذا يلقبونه إما مشغول أو في اجتماع أو مسافر وماذا غير ذلك؟

هل تتهكم؟

أبدًا، هكذا كانوا يجاوبونني كلما حاولت الوصول له، سابقًا لكنك اليوم تجلس عند قدميه يوميًا

متضايقًا قليلاً من قصة قدميهِ: نعم، ولم لا أفعل، وأنا مرشح

المهم أنك وصلت اليه

نعم وصلت اليه وأريته صورتي على فيسبوك، وأعجب بها!

وماذا؟

طلب مني سيرة ذاتيه فسلمته مجموعة واسعة من القصائد والخواطر المُبهرة التي كتبتها خلال سني عمري الستين،

وأظهرت له أنني عضو في نقابه الصحفيين المُبهِرين

وما هذه النقابة؟

إنها نقابة للصحفيين المُبهرين أسسها عبدالودود الأخضر

ومن هذا؟

أنه المؤسس والأمين العام لنقابة الصحفيين المبهرين

وأين مقرهم يا أخ محمود؟

هم على فيسبوك.

فهمت

ماذا فهمت؟

ليس لهم مقرعلى الأرض

إنهم منتشرون في 40 دولة

يعني أكثر من عدد الدول العربية!

صحيح، فهذه نقابة عالمية

منفعلًا-ليكن، ماذا حصل بعد ذلك؟

بشأن ماذا؟

بشأن لقاءك مع القائد عضو المكتب السياسي

نعم ذهبت إليه بعد أن قدمني له صديق عزيز وكان يجلس كالطاووس في مكتبه الذي مساحته تزيد قليلا على مساحة بيتي كلّه، فبُهرت

ضاحكًا:لذلك أنت عضو نقابة الصحافيين المبهرين!

عفوا!

لا أبدا، أنا أناغشك، وأداعبك... أكمل

كان يرتدي بزة قاتمة تبرق حتى ظننته ذاهب الى حفلة أو سهرة! وهي على حد علمي من النوع الفاخر

فاخر! وكيف علمت؟

من النظافة واللمعان، ولو كان الأمر بيدي لسألته عن نوع القماش، لكن الشأن العام غلبنا!

متهكمًا: صحيح.

حدثته كما قلت لك عن أحقيتي بأن أكون عضوا في قائمة فصيله الذي هو القائد فيه، وهي قائمة: الدبور المثير

ما أسمها؟

قائمة الدبور المثير

وهل انتهت الأسماء!؟

يا سيدي، بدنا (نريد) العنب

صحيح طيب، وأين ذهبت قائمة اللوز الأخضر وقائمة الكوكب المتجدّد؟

تلك قوائم كبيرة على ما يبدو، وقد طردوني من على الباب!

ضاحكًا: أكمل فأنا استمع

القائد الكبير الذي يلبس بدلة بما لا يقل عن ألف دولار

فقط ألف دولار؟

هكذا أظن!

أنت شكلك مسكين

تجاوز عن جهلي إن كنت جاهلا

يا أخي محمود ألا تعلم أن من البدلات الرخيصة ما ثمنها

عشرة آلاف دولار؟

متعجبًا: أoووف... لهذه الدرجة!

بل وأكثر حيث أن البدلات متوسطة السعر بحدود 30 ألف دولار، فمابالك ببدلات: «دي فانكويش» وبدلات الخياط البريطاني «ويليام ويستمانكوت»، وبدلات الخياط الشهير»ألكسندر أموسو« بما يقارب 100 ألف دولار...

مندهشًا ومنبهرًا: لا تحبطني، ولا (تلخبطني) بهكذا أسماء لم أسمع بها، أرجوك لنقفز عن هذا الموضوع

طيب أكمل حديثك عن زيارتك مكتب القائد الجهبذ

في مكتبه الذي كان مليئا بالأتباع، بدأ القائد الجهبذ يعدّد لي صفاته وموقعه الكبير داخل فصيله، ودورة بتشكيل القائمة، وهوالدور الذي وصل اليه بذراعيه الطاهرتين.

كيف ذلك؟

لا أدري، هو قال لي وصلت موقعي القيادي في المكتب السياسي بعرق جبيني وبذراعي! هكذا قال.

متقززًا: طيب لنستمع!

مكملًا: وأعطاني مجموعة من الدروس التي قد تمكنني في يوم من الأيام أن أكون قائدًا بحجم وطن، مثلُهُ هو، حيث سمعتُ صراخًا من الجموع المستريحة في مكتبه تصرخ هاتفةً بذلك! أوقائدًا جهبذًا كما رأيت ذلك مكتوبًا تحت صورة له بالحجم الطبيعي معلّقة في مكتبه الوثير.

عمومًا اكتشفت أن صورتي على فيسبوك، وسيرتي لا تفيد؟

لماذا؟
إليك ما قال لي القائد الجهبذ وهو يتمطّى أمام الحاشية:
قال لي:عليك بالخضوع والخنوع والركوع
وعليك لتصل هدفك فهم آليات المداورة والمناورة
وبلا مجاكرة أو محاورة!
وعليك باستصلاح أفضل الهدايا والبغايا والعطور لتهديها.
لتهديها لمن هو بكفّيه رفعك أو خفضك!
وعليك بمعجون الأسنان
وعطور الشرق واللبان.
ورائحة الياسمين تغطيك من الأعلى حتى الأسفل
وتدخل الى مكتب أوصالون القائد برجلك اليمني
وبانفراجه وثيرة عن أسنانك!
وبقسمات تُنبيء بالانبهار المسبق والترقب
ولا يُرى منك العجلة
ولايُرى منك الانفعال السلبي أو الذبول
وعليك بالاستحسان لما يقوله القائد والقبول
الاستحسان والامتنان لما قال أكان يعجبك أو لا يعجبك
فليس من المهم أن يعجبك أو لا يعجبك!
وإنما المهم أن تبدي أنت الاستحسان والقبول والإعجاب وقرع الطبول!
اقرع الطبول لما يقوله.
ولا بأس من أن يعلو صوتك مديحًا أو استحسانًا.

كأن تقول مثلا: الله الله جميل
هذا من فضل ربي!
أو تقول: اللهم اجعل نُطقك الشريف في ميزان حسناتك!
وعليك إضفاء السحر على كلامه
وإشعاره أنه قال ما لم يأتي به الأوائل ولا يستطيع أن ياتي به الأواخر.
لقد أفضت وأطلت! وأنا عندي موعد
مازال في الجعبة الكثير!
سنسمعه لاحقًا، لكن ما حصل بتموضعك ضمن قائمتهم قائمة الدبور المثير وهذا الأهم!
الذي حصل أن القائد الجهبذ عضو المكتب السياسي طردني!
الى هذه الدرجة! لماذا؟
لقد كنت أستخدم عِطرًا باهتًا كما أسماهُ! فلا يليق بي أن أقابله وهو يضمّخ جسدي، فيتأذى أنفه الشريف؟

ماراثون المرشحين!

تكاثر المترشحون التمهيديون لقائمة: الكوكب المتجدد، حتى فاق التوقعات. فالتنظيم السياسي الذي جعل من شعاره استيعاب الجماهير دفعة واحدة وليس على دفعات وبحضن واحد لا احضان، لم يستطع مع كل خبرته الطويلة كما تقول وثائقه الداخلية -التي لا يقراها احد- أن يضع قانونا أو لائحة ملزمة لأعضائه لضبط الترشح للانتخابات من حيث المواصفات المطلوبة من جهة ومن حيث الآليات الانتخابية أو التشاركية المطلوبة.

كان القرار المركزي في فصيل أو منظمة المطرقة السوداء هو أن من حق كل فدائي (هكذا كانوا يسمون أعضاءهم بدلًا من صيغة أخ أو رفيق أو مناضل المعروفة لدى فصائل أخرى) أن يقدم ترشحه التمهيدي داخل الفصيل للانتخابات مرفوقا بسسيرة ذاتية دسمة، ومُقسِما على الالتزام بالفصيل وقائمته المسماة قائمة:الكوكب المتجدد.

عمومًا كان أن شكّل التنظيم بقيادته العليا المُسمّاة المكتب السياسي فريقين اثنين فريق ذهب الى قطاع غزة، بعد التنسيق مع الاحتلال الإسرائيلي المتحكم بالمداخل والمخارج لكل الأمور، وفريق ذهب الى مناطق التركزالسكاني للمواطنين في الضفة الغربية ليعلموهم بفتح باب الترشح داخليًا لقائمة الفصيل أي قائمة الكوكب المتجدد

الفوضى تُنتج فوضى، والفوضى مدخل الاستبداد المفضّل، ومعين له أن يكون الفيصل. فحين تتكاثر الآراء ولا تتلاقى يكون السيف هو القاطع للآراء ما يجعل من الفوضى القائمة التي صنعها مالكو السيوف أنفسهم تعود اليهم كما أرادوا ليكون لهم الفصل الأول والاخير

عموما في حوارات قيادة فصيل المطرقة السوداء كانت فكرة القانون أو اللائحة المنظمة للعمل مفقودة كليًا لأسباب عديدة تتعلق بالتمحورات والتحزبات والتكتلات داخل المكتب السياسي للمنظمة.

شاء من شاء وفعل من فعل وكانت الأسماء المقترحة للترشح تُقدم تباعاً من الضفة الغربية ومن قطاع غزة لتجمعات التنظيم في كل مدينة، بمعنى أنهم جعلوا في كل مدينة مركزًا لاستقبال طلبات الترشح ضمن بضعة مواصفات من مثل أن يكون المترشح تحت عمر السبعين عامًا، و كفاءة وله خبرة (لم يذكر خبرة في ماذا)، ويحمل شهادة حتى ظن البعض أن شهادة التطعيم ضد جائحة كورونا قد تكون ضمن المرفقات! فأرفقها وظن آخر أن شهادة حضور دورة قيادة الحاسوب قد يكون ارفاقها ملائمًا ففعل وقام أحدهم بجلب شهادة في تربية الأبقار باعتبارها ضمن مفهوم الرعاية والقيادة المؤهلة له لقيادة شعب فما الفرق وكل الأنبياء كان رُعاة أغنام وهو راعي أبقار وهي الاكبر حجما والاكثر إدرارا للحليب.

النقطة المركزية كانت فيما يتعلق بقيادات الصف الاول من

الحزب الشائخ فصيل المطرقة السوداء الذي ما أن أخذ القرار بتخفيض السن لما دون السبعين عامًا حتى كانت القوائم تضم زوجات هؤلاء الشيوخ والأبناء وابناء العمومة والخؤولة .
اتصل بي أحد المترشحين لقائمة الكوكب المتجدد وهو مقيم في ألمانيا معلنا ترشحه للانتخابات رغم أن القانون ينص على الانتخاب والترشح هو للمواطنين المقيمين فقط في فلسطين (الاحتلال لا يعتبر الذين عادوا من الخارج مقيمين بل مقيمين إقامة دائمة) ولكن هيهات أن تقنع من كانت رغبته تفوق فهمه.
وآخر اتصل بي ليعلمني أنه بصدد التوكل على الله، والتقدم لخوض الانتخابات ضمن قائمة اللوز الأخضر أو قائمة الكوكب المتجدد أو غيرهما، وذلك بعد أن ألح عليه الجمهور إلحاحًا وإصرارًا معًا ليكون الممثل الشرعي والوحيد لقبيلته الممتدة على مساحة واسعة في شعاب ووديان وسهول وجبال الخليل الشماء مشيرا لي أن عائلته من العائلات القوية وذات الحظوة عند السلطة الحاكمة حكمًا ذاتيًا محدودًا، ولا يدانيها بقوتها الا العائلة الأخرى ولكنها ليست بذات الولاء الذي تمثلها عائلته وعقّب متوعدا وصارخا ومهددًا أنه سيفعل الأفاعيل إن لم يتم اختياره ضمن قائمة الكوكب المتجدد
لم أفهم بالطبع مع علاقة امتداد عائلته بقائمة وطنية! كما لم أفهم أيضا ادعاء الانتماء والوفاء للسلطة في مقابل التهديد!
إذ تضمن حديث الصديق من ألمانيا جُلّ التناقضات التي

يمكنك أن تسمعها، ولكن الهدف السامي الأوحد كان أن يتم اختياره، فلم استطع الا أن أبارك له خطوته بالتقدم للانتخابات
هل ستدعمني بالانتخابات؟
وكيف أدعمك والانتخابات قوائم؟
أقصد تدعمني بترشحي الداخلي لدى المكتب السياسي
وأين أنا من أعضاء المكتب السياسي، ولست إلا صحفيًا في صحيفة الموعد التي تعرفها والتي لم يعد يقرأها أحد، حتى على الشابكة (انترنت) بعد أن مزق الورق نفسه!
يعني لا تريد أن تدعمني!
ليس الأمر هكذا
قل كلمة تأييد لدى أبو الأيهم عضو المكتب السياسي، فهو صديقك؟
لا اعتقد أن كلمته مسموعة
انت فقط كلمه
حاضر، كان لابد لي من القول حاضر لأنه عند البطون تغيب الذهون كما يقولون، ومثيلها عند الرغبات العارمة تنتحر الأفكار العاقلة.
في اليوم التالي والذي يليه وقع فصيل المطرقة السوداء تحت مشكلة تكاثر الأصوات واجتمع المكتب السياسي للفصيل المرعب تاريخيًا، ليضع الموازين والمقاييس والآليات والمساطر لفرز الأسماء المترشحة داخليًا والتي تكاثرت حتى علت الطلبات طاولة الامين العام الذي لم تعد تستطيع

رؤية وجهه المدفون وراء هذه الطلبات
عدد الطلبات للترشح التمهيدي الداخلي وصل 4000 طلب ترشح لتنظيمنا الأبي، تنظيم المِطرَقة السوداء، ولقائمتنا قائمة الكوكب المتجدد، ونحن من التنظيمات التي عليها العين فكيف نستطيع الفرز؟

كان رئيس المكتب السياسي الأفخم يقود الاجتماع بثقة الفاتحين وكبرياء الزُّخرف المخاط بعباءة كبير الكهنة في معبد أثينا عند الألفية الثانية قبل الميلاد الحزين.

تقدم أحد أعضاء المكتب السياسي محاولا أن يضع بصمته، وتوزعت الآراء كالعادة

أن المدن والقرى في فلسطين يجب أن يكون لها نصيب في القول، فلنعتمد على المحافظين ورؤساء البلديات ليفرزوا معنا الطبات

لا، ليفرز معنا الطلبات قيادة فصيلنا الأبي

فليكن الفرز من قبل اللجنة التّمركُزيّة (وهي الإطار الثاني بعد المكتب السياسي داخل فصيل المطرقة السوداء، وكذا أمر الفصائل الأخرى)

لا، لا نريد اللجنة التمركزية فهم مجموعة أولاد

كيف تقول ذلك عن زملاء لك؟

ألم ترى ما حدث في المؤتمر العشرين لتنظيمنا.

يا فدائي نحن نتكلم عن انتخابات التشريعي فما شأن المؤتمر العشرين بالموضوع أرجوك حافظ على كلامك.

اهداوا يا جماعة، فالدنيا صباحًا (كان الوقت قد تجاوز صلاة العصر!)

رئيس المكتب السياسي الأفخم في ظل الخلافات داخل مكتبه السياسي وهم الذين تلاطموا تلاطم الأمواج كان فرِحا جذِلا، لأن القانون يقول كلما اختلفت رعيتك مدت رقبتها اليك لترى فيك الحكمة وقصبة النجاة، وهذا ما كان يبتغيه رئيس المكتب السياسي أو الأمين العام كما يسمونه، وثُلة من المحيطين به، بمعنى أن إقرار الأسماء في القائمة سرعان ما سيعود اليهم هم فيضعون ما يشاؤون ويحركون الناس كعادتهم كانهم في مسرح الدمى والعرائس.

عمومًا قرّر المكتب السياسي أن يؤجل الاجتماع بعد أداء صلاة المغرب، إذ كان المغرب قد دخل فصلوا المغرب والعصر معا في طريقة جديدة للتعامل مع الصلوات! فالضرورات تبيح المحظورات كما قال أكثرهم علمًا! الا أحدهم الذي آثر ألا يصلي ويستغرق وقته كله بالاتصالات قائلًا أنه غير طاهر.

بعد أن عاد المكتب السياسي للاجتماع التهبت المناوشات بين الأعضاء الى أن برز أحد أهم الفدائيين ضمن المكتب السياسي وهو مفكر المكتب السياسي الذي كانوا يشبهونه ب»سوسلوف» الحزب الشيوعي السوفيتي البائد، حيث قال: أن منطق الاختيار يجب أن يكون على قاعدة الالتقاء مع المرشحين وامتحانهم ببضعة أسئلة سياسية واقتصادية

وقانونية ونعتمد لذلك لجنة مستقلة تقيّم الاجابات؟ ثم نفرز.
صرخت اللجنة جميعها رافضة هذا الاقتراح الذي يستنزف الوقت، لا سيما أن العدد كبير وهم أكثر من 4000 مترشح محتمل لعدد 132 مقعد للتشريعي.
وتقدم «سوسلوف» ذاته باقتراح بديل هو أن يتم الاختيار بطريقة الاستبعاد بمعنى أن نضع مواصفات الاستبعاد لأي مرشح أي ذاك الذي لا يمكن أن يكون بالقائمة لمخالفته لشروط لجنة الانتخابات المركزية ومخالفته شروط الاشتراك بالحزب او الفصيل إضافة لمخالفة شروط السن أو الكفاءة.
وأضاف يتم الاستبعاد أيضا لمخالفة أي مترشح داخليًا لشروط اللباقة والأناقة والرِفاقة التي تمثل شروط عضوية فصيل المطرقة السوداء.
دار حوار طويل حول شروط اللباقة واللياقة والرفاقة المسطّرة في قانون الفصيل.
فمن قائل أننا وإن كنا وضعناها إلا أن الرفاقة أو الرفاقية تتناقض مع الفدائي والفدائية.
ومن قائل أن من شروط اللياقة أن يكون المتقدم بصحة عقلية ونفسية وجسدية لائقة لا سيما أنها من شروط الخلافة لدى المسلمين.
ومنهم من احتج بعدم جواز النظر فيها وفق نظرية تولي الشيخ عمرعبدالرحمان قيادة تنظيم (الجماعة الإسلامية) المصري وهو أعمى وفي المعتقل.

فكرة اللياقة التي تماثل سلامة الحواس والأعضاء في شروط الخلافة كما قال أبوالحسن الماوردي في الأحكام السلطانية كانت مرفوضة عند الأكثرية لا سيما أنها انتخابات تشريعي كما قالوا وليست خلافة الأمة.

ومنهم من أصرّ عليها، من باب ثقل المهمة كالخلافة تمامًا. افترق أعضاء المكتب السياسي لحزب المطرقة السوداء عند هذه النقطة طويلا.

وصولًا لنقطة اللباقة فمهما الأكثرية أنها تعني لباقة المظهر من جهة ولباقة الحديث فتصدى العديد من أعضاء المكتب السياسي لفكرة الامتحان الخطابي لتحديد مدى اللباقة، وقال آخرون أن المترشح المحتمل إن كان إمام مسجد او مارس الإمامة في المسجد فإنه يخرج من عباءة الاستبعاد، وهناك من قال أن الحكم هو عبر الكيفية التي يقدم فيها الشخص نفسه أمام الجمهور العريض في المهرجانات العامة والأفراح والعزاءات، وليس فقط امام المصلين المستسلمين.

مسؤول الدعاية والاعلام في المكتب السياسي أصر على أن تكون الشاشة الزرقاء هي الحكم مقترحًا خضوعهم لها.

صمت رئيس المكتب السياسي الأفخم، وهو يرى المعارك محتدمة الى أن طلب تأجيل الجلسة الى اليوم التالي على أن تكون في بيت أحدهم الشهير بدسامة مطبخه وذلك في بيته العريض على قمة أحد تلال فلسطين في الخُمس المتبقي من فلسطين، الخمس الواقع تحت الاحتلال المثقوب

بالمستعمرات، فعزموا أنفسهم عنده في اليوم التالي ولم يبقَ على تقديم القوائم الا بضعة أيام.

عضو المكتب السياسي كامل الدسم كان يعلم أن اتخاذ القرار ينطلق من التودد اللامحدود لرئيس المكتب السياسي أولًا، وثانيا من عمليه الإلهاء المتوجب عملها كمعركة جانبية بدأت من خلال هجوم كاسح شنّه العضو كامل الدسم صاحب الوليمة على عضو أخر متهما إياه بالتبعية لجهة خارجية خاصة أنه تخلف عن المآدبة التي يترأسها العضو كامل الدسم لا سيما وأن الامين العام رئيس المكتب السياسي يحضرها، فكانت هذه المعركة الجانبية فرصة لتفويت الفرصة على أي عضو يريد الاعتراض علي مقترحات العضو

-أنا بعد أن تدارست الأمر من كافة الجهات، ومع الفدائي الاول الأمين العام للمكتب السياسي حفظه الله أتقدم منكم باسمه باقتراح مجدول لغرض فرز الأسماء (هو يحشر اسم الامين العام ليعني لا يجروء أن يعترض منكم أحد)

-ماذا يعني اقتراح مُجدوَل؟

-لا تقاطعني

-أنا أسأل فقط!

-اسمع وتفهم، وتابع العضو صاحب المأدبة حديثة يشرح آلية اختيار الأعضاء المطلوبين لعضوية المجلس التشريعي: من المهم أن يكون العضو بصحة جيدة وأظنكم تتفقون معي في ذلك؟

......

-مكملًا: وبناء عليه ولأن العدد كبير ولو استخدمنا أي مسطرة لن ينفع ذلك

-ماذا تقصد بالمسطرة؟

-غاضبًا: ألم أقل لك لا تقاطعني

عاد العضو صحاب المأدبة بإيماءة من الأمين العام الأفخم تعني اهمله واكمل، ليكمل حديثة بعد ان اضطرب وقال سأكمل وآمل الا يقاطعني أحد مع دخول صواني الشاي والحلويات

-أين هي صواني الحلويات؟

-أنت تقصد تخريب الاجتماع يا أبوالإبراهيم

-لا والله يا أبوالتوفيق أنما حقي أن أسآل!

(يبدأ المتحاوران باستخدام الكُنية مضافة اليها أل التعريف أي أبو الإبراهيم وأبو التوفيق في محاولة لترطيب الأجواء والتفخيم لكسر حدة النقاش)

-قلت لك تريث لتفهم

-ولكني سألت عن الحلويات

دخلت صواني الحلويات الشهية، فتوقف الحديث ليمد الجميع أيديهم الى قطع الحلوى الشامية الفلسطينية كاملة الدسم مع رشفات الشاي وتلمظ قطع الحلوى عاد أبوالتوفيق لعرض الاقتراح لا سيما وأنهم تجاوزوا صلاة الظهر والعصر وهم بصدد الصلاة جمعاً وقصرًا

-طيب لماذا جمعاً وأنا صليت الظهر؟
-يا فدائي أنت طويل اللسان وكفّ عن مقاطعة أبوالتوفيق يا أبوالابراهيم خلينا نعود للبيت قبل المغرب، هكذا قطع الأمين العام تدخلات أبوالتوفيق الذي بدا أنه يشكّل أقلية في المكتب السياسي للفصيل بحيث لم يتململ لدعمه في سلسلة التعنيف لأي محاولة استفسار الا واحد أو اثنين من المكتب السياسي منهم «سوسلوف» الفصيل!

-المهم أن أبوالابراهيم كامل الدسم قال دعوني أوضح لكم الحل باختصارقبل ان يقاطعني أحد، ملمحًا لأبوالإبراهيم وتحفز «سوسلوف» وهو ان نخضع المترشحين المحتملين لاختيار جسدي وعقلي

-ماذا؟

-الأمين العام ضجِرًا: اصمت يا أبوالابراهيم والا طردتك من الجلسة!

-شكرا يا سيدي الأمين العام، ودعوني أكمل فالاختبار العقلي معروف، ولكن دعوني أحدثكم عن الاختبار البدني وهو ما طبق في دول ذات ديمقراطية عريقة مثل أثينا وروما منذ سحيق العصور!

كان الحضور منشغلين بالتهام قطع الحلوى خاصة وان الكنافة النابلسية والكلاج، والمطبق المقدسي قد أصبحت تتسيد الطاولات امامهم، فتاهت القلوب وتوقفت الأدمغة عن الاستيعاب ولربما كانت هذه خطة أبو التوفيق مع الأمين

العام من البداية.

تابع أبوالتوفيق كامل الدسم: الاختبار البدني هو بأن نُخضع كافة المترشحين لسباق ماراثون؟

كاد يطير عقل أبوالابراهيم بل كاد ينفجر، ما بدا جليًا على وجهه فيما ابتسم «سوسلوف»، الا إنه بإشارة جادة من أحد حلفائه بالمكتب السياسي صمت مجبرا.وكنت ترى الأخرين بين الاغفاءة والنوم وبين اللعب بالجوال وكأن الأمر لا يعني من مجموع ال19 المجتمعين الا ثلاثة أو أربعة أعضاء.

تابع الفدائي أبوالتوفيق: ولأن مسافة الماراثون 42 كم، فإنني وجدت ان المسافة القريبة مثلها هي المسافة بين أريحا ورام الله، وفي غزة بين رفح ومدينة غزة.

تدخل أحد حلفاء الفدائي أبو التوفيق والأمين العام ليصحح المعلومة قائلا ان المسافة بين أريحا ورام الله هي 25 كم بينما بين غزة ورفح 35 كم، يعني في تحامل علي قطاع غزة بعشر كيلومتر...

تنبه أحدهم للحوار الدائر، ووضع قطعة الحلوى من فمه مؤقتًا وقال إنه يقترح أن يكون الماراثون الانتخابي للمرشحين المحتملين لقائمة الكوكب المتجدد بين جنين وحيفا. فيما قفز اقتراح أخر يصر أن يكون بين طولكرم ونتانيا. وهكذا تكاثرت الاقتراحات الى أن حسمها الأمين العام ليجعلها مقصورة على أراضي الخُمس المتبقى من فلسطين أي في الضفة وفي أراضي قطاع غزة.

عاد المتحاورون -باستثناء أبو الابراهيم الذي ألجمته الصدمة- عادوا للحوار بالمسافات فمن قائل أن المسافة بين غزة ورفح إن كانت 35 كم فهي بين غزة وخانيونس 25 كم، لذا فالاقتراح أن تكون بين الأخيرتين فقام عضو أخر غاضبا- لكنه مرضي عنه- وأظهر لهم أنه اتصل بدائرة الأراضي والمساحة والسماء والملاحة ليقولوا له أن المسافة بين رام الله وأريحا هي 35 كم ان لم نحتسب حواجز الاحتلال، وأصر أحد الأعضاء أن المسافة المطلوبة للماراثون يجب أن تكون في قطاع غزة بين مدينة غزة وخربة العدس قبل رفح فيستقيم الحساب!

فكرة عمل سباق ماراثون للأعداد الهائلة للمترشحين داخل الفصيل انتقلت من النظر بالمسافات سواء في الضفة الغربية أو في قطاع غزة أو بين الضفة الغربية بعرض الخريطة باتجاه فلسطين المحتلة الى حيفا والناصرة ويافا وعسقلان الى فكرة فتح الطريق الآمن بين غزة والضفة من قرية ترقوميا جنوب الخليل باتجاه بيت لاهيا.

ثم انتقل الحديث الحلو الى فكرة بعيدة عن كل المسافات.

إذ كيف يتم فرز الأصحاء جسديا من جهة، هل نطلب إرفاق تقرير طبي مثلًا، لا سيما وانتشار أمراض السمنة وأمراض الضغط والسكري والكبد الوبائي وحاملي التلاسيميا في فلسطين وغيرهم ممن قد لا يحتملون المسافات الطويلة، أو لمن يغسلون الكلى (كان قد ترشح منهم أربعة فقط) أو

مرضى القلب والرئة!

ثم عاد النقاش وقد تجاوز المجتمعون صلاة المغرب، وفنجان القهوة الرابع لكل منهم، ليدخلوا في فكرة التنسيق مع السلطة الوطنية الفلسطينية، وعبرها للتنسيق مع الإسرائيليين المحتلين للسماح لماراثون الضفة أن يتم بمشاركة المترشحين من القدس.

وفي غزة أن يتم التنسيق مع حكومة الأمر الواقع في فصيل حماس فلعلها تكون البداية الصحيحة للفرز البدني.

الى هنا، وبعد أن اطمأن الأمين العام الأفخم وأبو الابراهيم لنوم أو تخمة معظم الحضور، أعلن الموافقة الجماعية على الاقتراح، وتم فض الاجتماع.

لم ينعقد اجتماع للمكتب السياسي لمنظمة المطرقة السوداء بعد ذلك، الى ان كان اليوم قبل الأخير لتقديم القوائم حيث قدم وكيل قائمة الكوكب المتجدد 61 اسما فقط من مجموع الألاف المترشحة داخليًا للقائمة، الى لجنة الانتخابات المركزية، ولم يكن لأي من الأسماء علاقة بالألاف الأربعة المترشحة، ولا بالماراثون الذي لم يجري بالطبع، وكان أبوالتوفيق كامل الدسم على رأس القائمة.

القوائم تهدّد

كانت القوائم الرئيسة الثلاثة في الانتخابات هي قائمة: متحدون من أجل اللوز الأخضر، وقائمة الكوكب المتجدد، وتلك المسماة قائمة الدبور المثير.

ولم يعني هذا عدم وجود قوائم أخرى لها من الحظوظ بمقعد أو أكثر، كما كان يشار دوما لقوائم مثل قائمة: البناء وضد الغلاء، وقائمة هيا بنا نلتقط اللحظة التاريخية! بل ان قائمة: مواطنون في مواجهة العاصفة كانت تدق الأبواب في كل حارة لعلها تواجه العاصفة.

التقى كل من محمود.... وأبونرجس في الطريق ما بين مقر الانتخابات ومقر أحد الأحزاب المرشحة، وحاولا معاً أن يرسما صورة لشكل النتيجة فيحللان تمامًا كما بدأ يفعل الفلسطينيون خارج الوطن ممن لا يحق لهم الانتخاب، وأولئك بالضفة وغزة.

تعددت القوائم التي انبثقت من تحت ظلام العيون وخيالات الأحلام لتقفز الي رقم ٣٩ قائمة انتخابية تمامًا بنفس عدد قوائم الانتخابات الاسرائيلية الرابعة خلال عامين داخل الكيان المبني على أرض فلسطين وهي الانتخابات المتكررة خلال عامين التي يتقي فيها بنيامين نتنياهو سجنه لأنه كلما ظل رئيسا للوزراء احتفظ بحصانته فلم لا يستمر سكان كيانه السياسي على أرض فلسطين في الانتخابات ذاهبين رائحين أو ليدقوا رؤوسهم بألف حائط.

في الاتجاه الآخر من أرض فلسطين، أي في الخمس المتبقي من فلسطين والمسمى سلطة الحكم الذاتي المحدود وبعد ١٢ عاما من غياب الانتخابات الداخلية للكيان المحمي بالاحتلال، انفجر الجرح وانبثقت القوائم لتصل عدد ٣٩ قائمة، وكأن في العدد خير وهو في الحقيقة نثر لمكونات المجتمع الفلسطيني الفصائلية والمجتمعية والقبائلية والعشائرية على مساحة القوائم بينما كان الهدف هو أن تشتمل القوائم علي الوطن دخل أي قائمة أو على الأقل أن تتمايز القوائم ببرامجها وهو الأمر المثير للغرابة أذ لم يكن هناك من تمايز بالبرامج! الا بالتاريخ لبعض القوائم.

القوائم المستحدثة بلا تاريخ فصائلي كان اهتمامها مرتبط فقط ببضعة قضايا مطلبية فقط بعيدا عن السياقات الوطنية العامة أي أن الكثيرين في القوائم يدخلون الانتخابات وكأنهم يدخلون انتخابات بلدية!

التقى محمود وأبونرجس في الطريق الواصل بين الانتخابات والامتناع عن عقد الانتخابات!

هل تعتقد أن الانتخابات على الابواب؟

أي أبواب؟

أقصد الانتخابات لن تحصل

لماذا؟

لأن جائحة فيروس التاجي تصفع وجوه الناخبين

عندما أعلن عقد الانتخابات كانت كورونا عامة طامة فماذا

تغير؟

بدأت تصفع وجوه الناخبين

تصفع ماذا؟ وهل نحن في مقام شعري؟

أقصد أن الجائحة جائحة كورونا تزاد قوة

كورونا في كل مكان وهي عند الإسرائيليين لم تمنع ٤ انتخابات حتى الآن

لكن نحن وضعنا مزري، إضافة الى أن القدس غير مشمولة

لماذا؟

لأنهم يقولون إن الاحتلال سيمنع الانتخابات في القدس

لا اعتقد

لا تعتقد ماذا؟

لا اعتقد أن الالغاء واقع، كما تقول فاليهود يتحكمون بكل مفاصل حياتنا ونعقد الانتخابات ككل بموافقتهم وما الجديد!

هكذا سمعت.... انهم يجهزون لإلغاء الانتخابات

من هم؟

قيادة السلطة؟

لماذا؟

لأن فصيلهم تبعثر شمالًا وجنوبًا وما أحببت أن أقول شذر مذر!

خليك بسيط خليني أفهم.

ورغم أن محمود أشار للبعثرة والنثر والانتشار (أو النعف بالمحلية الفلسطينية) سواء فيما يتعلق بعدد القوائم التي

انتعفت، كما انتعف منتظمو أحد الفصائل على ٥ قوائم! الا أن أبونرجس توقف طويلا عند مصطلح شذر مذر ليس لأنه لم يفهمه فهو لا يفهم الكثير ويعترف على عكس القادة الذين لا يعرفون ويدعون العلم وأنما ما حيره من أين جاء صديقه بهذا المصطلح؟

سار الصديقان معا باتجاه لجنة الانتخابات المركزية ليسألا معًا عن قصة الحاج «سانت لوغي» والعملية الحسابية المنسوبة للحاج، التي يتم التعامل فيها في احتساب الأصوات فالتقطوا نشرة مبسطة تعرض الحساب في ٦ صفحات صعيرة، وخرجوا!

انتقلا معا الى المقهى القريب، والوقت مارال ظهرًا، وبدأ كل منهما يقرأ وينظر للآخر وكأنهما يقرآن الهندسة الفضائية!

كانت أكواب الشاي بالميرمية قد وصلت، وبعد ارتشافات طويلة وبعد الكوب الثالث لم يفهما شيئا على ما ظهر من حالة الانهماك والقلم والورقة لكل منهما التي طلباها، والتي توفرت بالمقهى الشعبي وهي ذات الأقلام والأوراق المستخدمة في لعبة الورق والطرنيب، ولكن لا معنى للأرقام! وكأن الحاج «سانت لوغي» يتعمد التعقيد!

تجادل الصديقان المرشحان عن قائمتين مختلفتين طويلا، وهما وان كانا في قائمتين مختلفتين إلا أن صداقتهما كانت أكبر من الاختلاف في المواقع على عكس ما هو حاصل بين القوائم الثلاثة الرئيسة التي بدأت تشن حربا شعواء ضد

بعضها البعض وترفع شعارات الشرف والرفعة والتقدم والعيش الرغيد! وهي تمارس الشتائم لكل من دب على أرض مغايرة لأرض قائمتهم!

لا تنتخبوا عبد الأثير الفردوسي تنتحرون

لا تنتخبوا قائمة الزمرد الممزق! فتتمزقون ولا زمرد

عبدالأثير الفردوسي خائن ونذل ومراوغ

انتخابكم لعبد الأثير الفردوسي سُبة في جبين عائلتكم

....

عليكم بانتخاب قائمة الدبور المثير لأن بها حسن التدبير

انتخبونا لأننا متحدون من أجل اللوز الأخضر

بناء وتحمس وتعمير وأكل الحمص

نعم للفلافل ولا للقلاقل

كونوا يدا واحدة وعنقا واحدا وعينا واحدة للوطن

الله الوطن نحن قائمة الوعي المبكر

....

وهكذا مما وجدوه من شعارات ملأت الشابكة أي الانترنت، وجعلت من مختلف القوائم أضحوكة لدى الناس الفاهمين من جهة ولدى بعض ذوي الوعي من ركاب قاعة الانتخابات الرئيسية أي فيسبوك! الذي يتقاتل فيه الفلسطينيون ويظهرون أسوأ ما فيهم.

كانت الشعارات الاتهامية سِمة التنظيمات الدينية المتطرفة وتلك الايديولوجية التي تستغل إيمان الناس السذج، وحاجة

الناس الخدج، ولكن في هذه الانتخابات اختلطت الأوراق!
كانت الدعاية الانتخابية في طول البلد المنخور بالمستعمرات الصهيونية تتجه نحو الشتم والاتهام والتعهير رغم ميثاق الشرف الذي وقعت عليه الفصائل والقبائل في كوالالمبور!
كانت الدعاية الانتخابية في طول البلد المنخور بالمستعمرات الصهيونية تتجه نحو الترويج لما هو بعيد التحقيق أو لما هو ليس هو ذو صلة بمصالح الوطن العليا وإنما لما هو حاجات يومية يمكن لأي بلدية ان تقوم بها بينما بالاتجاه الأخر كانت الدعاية تعتمد على استقطاب الأساتذة بالجامعات تحت سيف المعاشات!
طالت التهديدات من ذوي السلطان الذين بدأوا يخافون علي تساقطهم كالذباب تطال الجميع وبطرق فاحشة.
إما تنتخبنا وتروّج لنا، وإما نستبدلك!
كانت التهديدات المضحكة والمبكية تنتشر عبر الاتصالات الهاتفية من جهة، وعبر مجموعات «واتس أب» و«فيسبوك»، وعبر محاولات المس الجسدي بالتخويف عبر السيارات!
وصل الأمر إلى المعتقلات التي طلب فيها وبإصرار لحد الإلزام تحت سيف المعاش! أن يرسل المعتقلون للقادة من هذا الفصيل، أو ذاك بيانات دعم للقائد الهمام أو القائد الجهبذ!
لم يحتج للعاملون بالوزارات للتهديد فهم قد فهموا الدرس!
ولم يحتج العاملون بالجمعيات غير الحكومية للتهديد فهم أيضًا قد فهموا الدرس.

وصلت التهديدات إلى المعتقلات والمعتقلين الذين لم يتم استثناؤهم، فالضغط عبر المعاشات والعائلات أصبح سمة الدعاية الانتخابية التي تمنى الفلسطينيون آلا تتم سواء بسبب جائحة الفيروس التاجي أو بسبب منع الاحتلال لصناديق الانتخاب في القدس أو الخليل أو نابلس والجليل!

انتهى

الفهرس